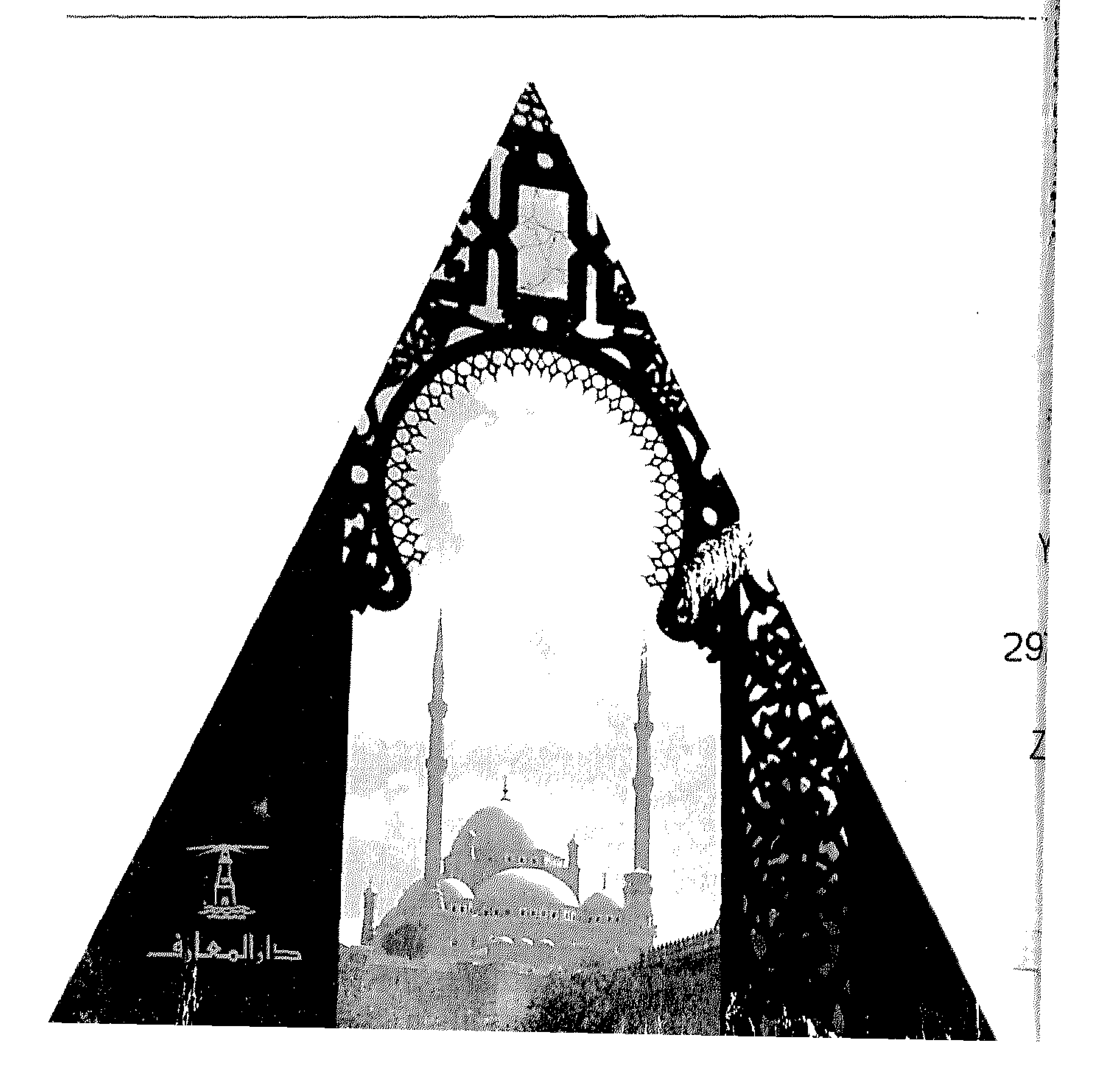
دكتور محمود حمدي زقزوق

الدين والحضارة

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور محمود حمدي زقزوق





إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

غنى عن البيان أن نؤكد أن الدين هـــو المكـون الرئيسـى لكـل الحضارات التى صنعها الإنسان على مدى تاريخ البشرية. فـإذا تأملنا – على سبيل المثال – فى أقـرب الحضـارات إلينـا وهـى الحضارة المصرية القديمة فإننا نجد أن الديـــن كـان هـو البـاعث الأساسى لهذه الحضارة. ويتضح لنا ذلك بجلاء من الآثار الباقية التى تركها لنا أجدادنا من قدماء المصريين. فأهم مـا خلفـوه لنـا يتمثل فى المعابد والمقـابر والأهرامـات التـى تعـبر جميعـها عـن الطابع الدينى لهذه الحضارة، ومـا عـدا ذلـك مـن آثـار مصريـة أخرى نجده يتصل أيضاً بالدين بشكل أو بآخر. وكذلـك الشـأن بالنسبة للحضارات الإنسانية الأخرى، ومن بينها بطبيعة الحال الحضارة الإســلامية التـى قـامت وازدهـرت انطلاقـاً مـن تعـاليم الإسلام.

وهذا إن دل على شىء فإنمـا يـدل علـى مـدى عمـق العقيـدة الدينية وتغلغلها فى النفس الإنسانية. ولايزال الدين يــؤدى دوراً رئيسيا فى حياة الأفراد والشعوب على الرغم مـــن كـل مـا وصـل

إليه الإنسان من تقدم مادى باهر. ولايزال الإنسان فى عصرنا الحاضر فى حاجة ماسة إلى هداية الدين وصفاء الروح وعمق اليقين لينعم بالسكينة ويتخفف من حدة اندفاعه المادى وغلبة الأنانية على حياته وسلوكه.

ولإبراز هذه المعانى وما يرتبط بها من أمور أخرى حاولنا فى **الفصل الأول** من هذا الكتاب أن نبين أهمية العقيدة الدينية فى حياة الإنسان، وعرضنا بإيجاز مدى حاجة البشرية إلى ظهور الدين الإسلامى. وأشرنا إلى الملامح البارزة للإسلام وما يشتمل عليه من عقائد أساسية.

أما **الفصل الثانى** فقد جاء بمثابة دعوة للتأمل فى الإنسان فى ضوء تعاليم الإسلام.

ونظراً لأن الإنسان هو وحده الكائن المتدين، وأنه فى الوقت نفسه صانع الحضارة فقد كان لزاماً علينا أن نحاول فى **الفصل الثالث** إلقاء الضوء على قضية الحضارة بصفة عامة، وصلة الحضارة بالدين الإسلامى بصفة خاصة مبينين فى هذا الصدد أن الحضارة تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أية فريضة أخرى فى الإسلام، وأن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديا ومعنويا، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض.

ونأمل أن يكون فى نشر هذا الكتاب فائدة تعـود علـى القـراء وتدفعهم إلى المزيد من الاطلاع والبحث والتأمل فى القضايا التـى أشرنا إليها فى إيجاز شديد. والأمـل معقـود علـى عـودة الوعـى بدور الدين فى دفع عجلة التقـدم الحضـارى فـى عالمنـا العربـى الإسلامى حتى تأخذ الأمة الإسـلامية مكانـها اللائـق بـها بـين الأمم، وتسهم بفاعلية فى تقدم وخير الإنسان فى كل مكان.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ. د. محمود حمدى زقزوق

القاهرة: ١٨ من صفر ١٤١٩ هـ

١٣ من يونيه ١٩٩٨ م

الفصل الأول
العقيدة الدينية
وأهميتها فى حياة الإنسان

١ - الطبيعة الإنسانية والنزعة الدينية:

تشتمل الطبيعة الإنسانية على عنصرين أساسيين: عنصر مادى وعنصر روحى، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان من طين، وأنه عندما اكتملت تسويته وتم صنعه من هذه المادة الطينية التى تشتمل على كل العناصر الأساسية للمادة أضاف الحق - تبارك وتعالى - إلى ذلك عنصراً آخر جوهرياً. وقد تمثل ذلك فى العنصر الروحى الذى به اكتمل خلق الإنسان، والذى به صار الإنسان إنساناً، وأصبح جديراً بأن يطلب الله من الملائكة أن يسجدوا له تمجيداً لصنع الله وتكريماً للإنسان. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[1].

ونلاحظ فى هذه الآية حقيقة هامة لا يجوز أن تغيب عن الأذهان وهى: أن الله - سبحانه وتعالى - قد أضاف هذا العنصر

(١) سورة الحجر الآية ٢٩، وسورة ص الآية ٧٢، انظر أيضاً نفس المعنى فى: سورة السجدة الآية ٩.

الروحى إلى ذاته، فقد نفخ الله فى الإنسان من روحه هو - سبحانه -. وهذا تكريم ما بعده تكريم وخصوصية للإنسان لم ينلها أحد غيره من الخلق. فبقية المخلوقات تشترك مع الإنسان فى العنصر المادى، ولا يمتاز الإنسان عنها فيه شيئاً أكثر من جمال الصورة وكمال الصنعة. ولكن الامتياز الوحيد الأهم من ذلك كله، هو فى هذا الجانب الروحى الربانى الذى به أصبح الإنسان خليفة الله فى أرضه.

وقد أساء إبليس فهم طبيعة الإنسان ونظر فقط إلى الجانب المادى فيه واستكبر أن يسجد لآدم قائلاً: ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[1]، وغفل عن أن الله قد نفخ فيه من روحه سبحانه. فالأمر إذن لم يكن - كما فعل إبليس - أمر مقارنة بين الطين الذى خلق منه الإنسان، والنار التى خلق منها إبليس، وأفضلية النار على الطين، وإنما الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بهذا الجانب الروحى السامى المتصل مباشرة بالله، لأنه روح من روح الله سبحانه.

ويشمل هذا الجانب الروحى: كل القوى المعنوية فى الإنسان من عقل وروح، وقلب. ويعبر حجة الإسلام «الغزالى» عن هذا

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦١. وفى سورة الحجر أيضاً الآية ٣٣ ﴿ **قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** ﴾.

الجانب الروحى بقوله: إنه ذلك «الحس السادس الذى يعبر عنه بالعقل، أو بالنور أو بالقلب أو ما شئت من العبارات»[1].
ويمكن تقسيم هذا الجانب الروحى إلى قسمين: **أحدهما** يتصل بالعقل ومجاله، **وثانيهما** يتصل بعالم الروح والوجدان.

ومن ذلك يتضح أن هناك جوانب أساسية فى طبيعة الإنسان لا يجوز إغفالها أو تجاهلها أو تغليب بعضها على بعض بطريقة تخل بالتوازن بينها. وبناء على ذلك يمكن تلخيص هذه الجوانب الأساسية فى ثلاثة أمور هى: **الجسم، والعقل، والروح.** وتلك جوانب جوهرية لابد من مراعاتها جميعاً إذا أريد فهم الإنسان فهماً سليماً وإذا أريد تربيته وتقويمه حتى يصير صاحب شخصية سوية متوازنة، وهذا التوازن من شأنه أن يؤدى إلى إقامة مصالح الدين والدنيا معاً. ومن هنا كان اهتمام الشريعة الإسلامية بالتأكيد على المقاصد الضرورية التى قصدت إليها وهى: حفظ «الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال»، وهى كلها أمور تتعلق بتلك الجوانب الأساسية فى الطبيعة الإنسانية.

فالجسم الذى يمثل الجانب المادى فى الإنسان - له حاجاته التى ينبغى تلبيتها من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وغير ذلك

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ٢٨٩. طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٩ م.

مما يشبع هذا الجانب المادى فى حدود متطلبات هذا الجسم، وفى إطار ما رسمه الشرع، والحيوان - الذى يشترك مع الإنسان فى هذا الجانب المادى - يتطلع أيضاً إلى إشباع هذا الجانب. وذلك حق مشروع للإنسان والحيوان على حد سواء.

وإذا كان هذا هو الشأن فى أمر الجانب المادى فإن الجانب الروحى فى الإنسان له أيضا متطلباته وله حاجاته التى لابد من إشباعها، والعمل على تلبيتها. فالعقل يتطلع إلى العلم والمعرفة والفهم والإدراك، وهذا حقه، وتلك وظيفته التى خلق من أجلها.

ومن هنا فإن أى محاولة لتعطيل العقل عن أداء وظيفته تعد نكسة فى فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم، وتعد تعطيلاً لحكمة الله - سبحانه - من خلق العقل، تماماً مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها.

ومن هنا وصف الحق - تبارك وتعالى - هؤلاء الذين يفعلون ذلك بأنهم غير جديرين باستحقاق وصف الإنسان، فهم لا يزيدون عن الحيوان الأعجم بل هم أحط منه درجة وأدنى منزلة، وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها**

ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[1].

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب. يقول الله - تعالى - حكاية عن الكفار يوم القيامة ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم ﴾**[2].

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكذا يجعل الإسلام التفكير - الذى هو وظيفة العقل - واجباً مقرراً وفريضة دينية. يقول الله - تعالى - ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[3].

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجباً دينياً فإنها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية. وفى ذلك يقول

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ١٣.

القرآن الكريم ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1].

والعقل – كما يقول أبو حامد الغزالى – «أنموذج من نور الله» وقبس من نور الحق سبحانه، أو كما يقول الجاحظ هو: وكيل الله عند الإنسان[2]. ومن هنا كانت أول كلمة من الوحى الإلهى على محمد صلى الله عليه وسلم وهى **(اقرأ)** تتجه إلى مخاطبة هذا العقل. وقد تكررت مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى، كما وردت فى هذه الآيات أيضاً: كلمة **القلم** وكلمة **العلم**. وهذا تأكيد على أهمية القراءة والتدوين بالقلم فى سبيل الوصول إلى العلم وحفظه من الضياع. وذلك من المهام الأساسية للعقل الإنسانى.

وبجانب هذين العنصرين الهامين فى الإنسان: **الجسم والعقل**، يوجد هناك عنصر ثالث لا يقل أهمية عنهما ولا يكتمل البناء الإنسانى السليم إلا به وهو: **الروح**، وما تتطلع إليه من الارتقاء فى مدارج السمو الروحى الذى يعلو على ماديات الحياة ومتعها الزائلة.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) راجع بحثنا حول (دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى) ص ٧ – مكتبة وهبة بالقاهرة.

فإذا كان العقل يفهم ويدرك ويتدبر ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه، ويحكم عليه فإنه لا يجوز أن يقتصر مجال عمله على فهم وإدراك ما يتعلق بماديات الحياة وما يتصل بها من علوم وفنون، لأنه لو فعل ذلك، ولم يرد أن يرتقي بالإنسان إلى ما يسمو على ماديات الحياة، فإن هذا يعنى أنه قد وقف بالإنسان فى منتصف الطريق.

فعالم الماديات – رغم أهميته – ليس هو كل شيء، فهناك فوق ذلك عالم الروح المتصل بالله الذى نفخ فى الإنسان من روحه. والعقل في تأملاته وعلومه وفنونه وسائر أعماله مدفوع بفطرته إلى التطلع إلى ما فوق عالم المادة. ومن هنا فإن الوقوف بالإنسان عند عالم المادة يعد قصوراً فى فهم طبيعة الإنسان وتكوينه. وهذا الفهم القاصر والخاطئ قد يؤدى بالإنسان إلى إنكار عالم الروح كلية، أو على الأقل إهماله وعدم الاكتراث به. وهنا يظهر الإلحاد فى شتى صوره وأشكاله.

إن العلم الإنسانى مهما بلغت منجزاته المادية، ومهما اتسعت رقعة المعارف التى يضيفها إلى حصيلة البشرية من العلوم فإنه من ناحية أخرى يبين للإنسان قصور طاقاته. فكلما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية، كلما اتسعت دائرة المجهولات أمام

الإنسـانٍ. وصـدق الله العظيم القـائل ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[1].

وهذا من شأنه أن يحد من غروره ويخفف من غلوائه وإعجابه بنفسه ويجعله يلتفت إلى ما وراء هـذا الكـون المـادى: إلى خـالق الكون – سبحانه – وقد بينت لنا آية كريمـة ذلـك فـى قولـه تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2].

وقد أدرك المفكرون الكبـار علـى مـدى التـاريخ هـذا الجـانب الهـام وانتـهى بـهم الأمـر إلى إدراك أن الله هـو الحـق. فتـاريخ الفلسفة مثلاً يبين لنـا أن الفلاسفة الأوائـل قـد بـدءوا تأملاتـهم بالسؤال عن أصل هذا الكون المـادى ومم يتكـون، وقـد أسلمهم ذلك إلى البحـث فـى طبيعـة النفـس الإنسـانية وعمـا إذا كـانت تختلف فى طبيعتها عن الكون المادى، وانتـهى بـهم التـأمل إلى إدراك مبدأ الألوهية.

وهذا هو نفس الترتيب الذى ورد فى الآية الكريمة، فالإنسان عندما يفتح عينيه يرى أمامه هذا الكون الكبير وما يشـتمل عليـه

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

من أرض وسماء وبحار وأنهار وبشر وحيـوان ونبـات إلخ، ثـم يرجع بعد ذلك إلى نفسه - التى تمثل الكـون الصغـير - يتـأمل فيها وفى طاقاتها وقدراتها، ويخرج من هذا التأمل بنتيجة تبين له محدودية قدراته كإنسان، وهذه النتيجة بدورها تؤدى به فى النهاية إلى إدراك الذات المطلقة التى تمنح الإنسان تلك القدرات والمواهب، أى تصل به إلى الإيمان.

وهكـذا نجـد أن العقـل الواعـى الفـاهم المـدرك لا يقـف عنـد الأسباب الثانوية المبعثرة التى تصادفه فى الطبيعـة، بـل يتـابع السير إلى ما وراءها، وعندمـا ينعـم النظـر فـى سلسلة الأسـباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بُدًّا مـن الارتمـاء فـى أحضـان العنايـة الإلهيـة والتسـليم بوجـود الله الـذى بيـده مقـاليد كـل شىء[1].

وهذا يوضح لنـا أن «النظـرة الروحيـة أو الدينيـة لا تولـد فـى النفس إلا حينما يتسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنـه إلى ما وراءه، فهى أوسع النظرات مجالاً وأبعدها مطلباً»[2].

---

(١) راجـع كتابنـا: دراسـات فـى الفلسـفة الحديثـة ص ٣٩ - دار الفكـر العربى١٩٩٣ م.

(٢) راجع: «الدِّين» للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٦ - دار القلـم بـالكويت ١٩٨٠م.

وقد أكد أساطين العلماء فى عصرنا الحاضر من كافة التخصصات العلمية في مجالات الطب والذرة والكيمياء وعلم الحياة وطبقات الأرض وعلوم البحار وغيرها من علوم - أكدوا جميعاً أن كل ما انتهى إليه بحثهم أدى بهم إلى الاهتداء إلى أن هذا الكون لا يتصور أن يكون قد نشأ عن طريق الصدفة العمياء[1]، لأنه كون يشتمل على خطة محكمة ونظام متقن. وهذه الخطة المحكمة لابد أن يكون قد وضعها كائن مطلق قوى قادر عالم حكيم.

أليس هذا هو ما يقول به قانون السببية البسيط الذى يعد من البديهيات؟ من غير الله يقدر على هذا الإبداع؟

من إله غير الله يأتيكم بضياء بعد ظلام الليل؟.

ومن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه بعد النهار؟

ومن غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟

ومن غير الله يدبر أمر السموات والأرض؟

---

(١) لقد عبر هؤلاء العلماء عن ذلك فى كتاب ترجم إلى العربية تحت عنوان «الله يتجلى فى عصر العلم».

٢ - أصالة النزعة الدينية:

إن النزعة الدينية أصيلة في نفس الإنسان، والإيمان أمر فطرى لا يجحده إلا مكابر. وهذه الفطرة الربانية على الإيمان بالله عبرت عنها آية الميثاق فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعال -: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾[١].

وقد سئل أعرابى بسيط كيف عرفت الله؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير. وهذه سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على اللطيف الخبير؟

إن كل شيء في الوجود يشير إلى خالق الوجود. وقد عبر عن ذلك الشاعر العربى القديم بقوله:

وفى كل شىء له آية
تدل على أنه الواحد

والحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان على اختلاف مشاربهم أنه ليست هناك جماعة إنسانية ولا أمة كبيرة ظهرت فى هذا الوجود وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

«فالغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية. وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[1].

وتاريخ البشرية حافل بالكثير من الآثار والنصوص التى تبين لنا أن الناس فى كل زمان ومكان قد شغلتهم المسائل المصيرية حول الحياة والموت وما بعد الموت، وما شاكل ذلك من مسائل تعبر عن نزوع الإنسان وتطلعاته لحل ألغاز الوجود. وقد كانت الإجابات على تلك المسائل المصيرية تصدر عن الديانات التى اعتنقها الإنسان فى شتى العصور. ومن هنا كان قول برجسون:

«لقد وجدت، وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد أبداً جماعة بغير ديانة»[2].

وهكذا نرى أن حاجات الإنسان ومتطلباته تنحصر فى حاجات الحس وحاجات العقل وحاجات الروح، أو كما عبر عن ذلك أحد علمائنا الأجلاء[3]: «حاجة الحس، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامى».

---

(١) انظر: «الدين» للدكتور دراز ص ٣٨، ٨٢، ٨٣.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٨٣.

(٣) هو المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى المرجع السابق ص ٨٧.

وكل ذلك يؤكد لنا أن النزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان وليست شيئاً مفروضا عليه من خارجه، وأنها متوائمة تماماً مع الطبيعة الإنسانية، وأن جحودها وإنكارها يعد شذوذاً فى الطبيعة الإنسانية وخروجاً عليها وقصوراً فى فهمها.

٣ - الإيمان ضرورة حياتية:

وإذا كان الإيمان يعد أمراً فطرياً ونزعة أصيلة فى نفس الإنسان فإنه من ناحية أخرى يعد ضرورة حياتية لا تستقيم حياة الإنسان بدونها. ومن هنا نرى فى عالمنا المعاصر مقدار ما يعانيه الإنسان فى العصر الحديث من تمزق نفسى بسبب الفراغ الروحى الذى يعانيه، الأمر الذى يجعله كالمعلق بين السماء والأرض، ليس لديه أساس راسخ يركن إليه ولا إيمان يملأ جوانب نفسه بالسكينة والطمأنينة.

وقد أفرزت موجات القلق الحادة فى الغرب اتجاهات فكرية منحرفة كالوجودية وغيرها من تيارات محاولة ملء الفراغ الروحى الذى يعانى منه الإنسان، ولكن تبين أن كل هذه الاتجاهات الفكرية وما أحيط حولها من ضجيج إعلامى كبير وما نسج حولها من هالات لم تكن إلا كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ونظراً لأن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن الإيمـان، فإننـا نجد الملحدين الذين لا يؤمنون بالله يبحثون لأنفسـهم عـن شـىء آخر يؤمنون به يكون بديلاً عن الإيمان بـالله، فيتحـول الإيمـان بالله لديهم إلى الإيمان بالعلم أو بالإنسان أو بالمـادة.. إلخ. ولكنـه فى هذه الحالة إيمان مقطـوع الجـذور، لأنـه إيمـان بـالفرع دون الأصل وبالعرض دون الجوهر. وبالتالى لا يمكن أن يشبع مطـالب النفس الإنسانية المفطورة على الإيمان بـالله. وصـدق الله العظيـم القائل: ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾[1].

فـالمؤمنون وحدهـم هـم الذيـن تمتلـئ نفوسـهم بالسـكينة والطمأنينة، وتحظى بالأمل والثقة.

٤ – الإيمان والأمل:

والإيمان يرتبط بالأمل ارتباطاً وثيقاً لا يمكن أن ينفصـم. ومـن هنا نجد أن المؤمن لا يمكن أن ييأس أو يتسرب القلق إلى نفسـه. وصدق الله حيث يقول: ﴿ **إنـه لا ييـأس مـن روح الله إلا القـوم الكافرون** ﴾[2].

---

(١) سورة الفتح: الآية ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٧.

والأمل هو الذى يجعل الإنسان يحب الحياة ويعمل من أجل خيرهٍ وخير الناس، إيماناً منه بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وثقة فى عدل الله ورحمته.

ويمتد هذا الأمل مع الإنسان المؤمن إلى ما شاء الله بلا حدود. ولذلك وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يحث المؤمنين على أن يفعلوا الخير حتى ولو قامت الساعة مادام الإنسان فى وضع يستطيع فيه أن يقدم شيئاً. ويعبر عن ذلك حديث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حين يقول: **«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»**[1].

والأمل - الذى هو نتيجة طبيعية للإيمان - يعد نعمة كبرى ورحمة من عند الله لعباده. و **«لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً ولا غرس غارس شجراً»**[2].

٥ - مفهوم الدين:

وإذا كان الإيمان يعد فطرة أصيلة فى نفس الإنسان وضرورة حياتية يغذيها الأمل، فإن معنى ذلك أن الإنسان متدين بطبعه.

---

(١) راجع مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (طبع اسطنبول للكتب الستة مجلد ٢٢).

(٢) من حديث للنبى صلى الله عليه وسلم رواه الخطيب البغدادى فى التاريخ (راجع فيض القدير ٢/٥٥٩).

ومن هنا فإن من عرّف الإنسان بقوله : «**الإنسان كائن متدين**» لم يكن مجانباً للصواب.

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بطبعه إلى التدين عن وعى وإدراكٍ، والتدين مرتبط بدين، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. ولهذا رأينا الحق - تبارك وتعالى - يقول فى القرآن الكريم على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى نقاشه مع المكيين الوثنيين ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾[1]، فوصف معتقدهم الباطل بأنه دين.

ولكن القرآن من ناحية أخرى عندما يطلق لفظ الدين معرَّفاً فإنه يقصد به الدين الحق. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[3].

وهناك العديد من التعريفات لمفهوم الدين لن ندخل هنا فى تفاصيلها ولكننا نكتفى فقط بذكر واحد منها أشار إليه (التهانوى) فى كتابه كشاف اصطلاحات الفنون حيث يقول:

---

(١) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣.

«الدين وضع إلٰهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الصلاح فى الدنيا والفرح فى الآخرة. ويطلق على ملة كل نبى، وقد يختص بالإسلام. والدين يضاف إلى الله لصدوره عنه، وإلى النبى لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له»[1].

٦ - وحدة الدين:

ومنذ أن خلق الله الإنسان وأهبطه إلى الأرض، وأعانه على السير فى طريق الحياة، وهداه إلى ما يحفظ حياته من مأكل ومشرب ومسكن وملبس الخ. لم يتركه بعد ذلك دون رعاية روحية، بل تعهده سبحانه وتعالى بإرسال الرسل فى فترات مختلفة على مدى التاريخ البشرى يبينون للإنسان طريق الهدى والرشاد، وظلت الرسالات الإلٰهية إلى البشرية تتوالى جيلا بعد جيل تذكرها إذا نسيت، وتحذرها إذا انحرفت، وتوجهها إلى الخير إذا ضلت الطريق.

وقد انتهى المطاف بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكانت رسالته خاتمة الرسالات، ومكملة لدين الله الذى جاء به رسل الله من قبل. وقد جاءت هذه الرسالات جميعها تخاطب

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه - للدكتور/ محمد يوسف موسى ص ١٥ مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٨٠ م.

فى الإنسان تلك النزعة الدينية الأصيلة، وتوقظ فى أعماقه هذا الشعور الدينى المتأصل فى النفوس.

ومن هنا فإن رسالة الأديان لم تكن تتجه إلى خلق الميول الدينية فى النفوس، وإنما كانت توجه هذه الميول - التى هى موجودة أصلاً - الوجهة الصحيحة لتصل إلى الدين الصحيح. فالوحى الإلهى إذن جاء رحمة من عند الله يهدى النفوس الضالة، ويساعد العقل الإنسانى على الوصول إلى الحق من أقرب الطرق وأيسرها[1].

وإذا كانت رسالات الرسل قد تعددت فليس معنى ذلك أنها كانت مختلفة فى أصولها وأهدافها. فالدين الذى شرعه الله للبشرية دين واحد فى أصله ومضمونه. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآية التى سبق ذكرها فى قوله تعالى: **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾**[2].

ومع التأكيد على وحدة الدين الإلهى فى أصله ومضمونه فإن هناك اختلافاً واضحاً بين الأديان السماوية فيما يتعلق

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

بالشرائع، نظراً لأن هذه الشرائع في الأديان التي سبقت الإسلام كانت محدودة بحدود الزمان والمكان ومتغيرة بحسب الظروف والأحوال. وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[1].

وقد تدرجت الرسالات السابقة على الإسلام لتكون متمشية مع عقلية الشعوب والأمم التي وجهت إليها، وظل الحال على ذلك دهوراً طويلة، يجيء دين في إثْر دين، ورسول يأتي في إثْر رسول، وكل دين له زمان موقوت وقوم مخصوصون.

٧ - ضرورة الدين الإسلامي:

ولما وصلت البشرية إلى تمام نضجها كان الدين الخاتم وهو الإسلام الذي أكمل الله به الدين، وكانت شريعته شريعة خالدة صالحة لكل زمان ومكان. وقد جاءت هذه الرسالة الخاتمة على فترة من الرسل، وكانت البشرية في أشد الحاجة إليها لإنقاذها من الأوضاع الفاسدة التي تردَّتْ فيها من جميع الجوانب.

وهكذا كانت هناك ضرورة ملحة لهذا الدين «بعد أن خفت صوت الرسل السابقين، وضاعت معالم الرسالات الإلهية التي أرسلها الله لعباده، لا فرق في ذلك بين بلاد العرب حيث بيته

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

المحرم، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية، وفارس حيث كانت المانوية والزرادشتية والمزدكية، وغير هذه البلاد من أقطار العالم المختلفة»[1].

وإن إلقاء نظرة سريعة على أوضاع الأمم قبل الإسلام لترينا مدى الحاجة الماسة إلى هذا الدين الجديد. فقد كان العرب يعبدون أصناماً يتخذونها أرباباً من دون الله. وفى فارس كانت الديانات الثنوية تقول بإلهين: النور والظلمة، أحدهما للخير والآخر للشر، وكانت الديانة المزدكية تدعو إلى الإباحية المطلقة. ولم يقتصر الأمر على الضلال فى العقيدة، بل كان الظلم الاجتماعى هو السمة السائدة فى المجتمع الفارسى.

أما المجتمعات التى كانت تسود فيها المسيحية فى بلاد الروم فقد تحولت فيها الديانة المسيحية السمحة إلى ديانة معقدة يستعصى فهمها على العقول، وانقسمت الطوائف المسيحية على نفسها انقساماً حاداً. وساد الظلم الاجتماعى وانتشر الانحلال الخلقى، والفساد الإدارى.

ومن هنا وجدنا رعايا الإمبراطورية الرومانية فى كثير من المناطق يقبلون على الإسلام لتخليصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم

---

(١) انظر: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٢٢.

وعنت. وفي ذلك يقـول توماس أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام[1] قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة. وكان الناس فى الواقع مشركين، يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام – بعون من الله – هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى.. ونبذ الفضائل الكاذبة، والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة. وسفسطة المتنازعين فى الدين. ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية»[2].

وهكذا كانت كل الظروف العالمية حينذاك تتطلب إنقاذاً سريعاً ومخرجاً يخرجها من الظلمات إلى النور، فكان هذا الدين

---

(١) وهذا ينطبق أيضاً على سائر البلاد المسيحية آنذاك.

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين ص ٩٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١ م.

الخاتم – دين الإسلام – بما أتى به من تصحيح للعقائد وتنظيم للمجتمع وإقامة لموازين العدل بين الناس، وتثبيت لدعائم القيم الأخلاقية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة – كان هو الدين الذى وضع البشرية على الطريق الصحيح، وكان ولايزال هو النور الذى فيه خلاص الإنسانية من كل ما تعانيه من أزمات فى جميع مناحى الحياة المادية والروحية على السواء.

٨ – شمولية الإسلام ووسطيته:

لقد جاء الإسلام ديناً شاملاً ينتظم جميع مناحى الحياة، وملبياً لحاجات الإنسان جميعها، فهو دين للإنسان ومن أجل الإنسان. ومن هنا جاءت تعاليمه ملائمة للطبيعة الإنسانية، ومتفقة مع كل المتطلبات والاحتياجات المشروعة للإنسان فرداً كان أم فى جماعة.

وقد كان اهتمام الإسلام بالإنسان اهتماماً عظيماً. فقد جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض، وكرمه، وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها.

ومن دلائل اهتمام الإسلام بالإنسان ما يلاحظه المرء من أن القرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان. وقد تكررت كلمة الإنسان فى القرآن ثلاثاً وستين مرة، وجاء الحديث عن الإنسان بلفظ بنى آدم فى القرآن ست مرات وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة. ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى.

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة دستوراً ينظم للإنسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس وحيوان ونبات وجماد. وفوق ذلك كله وقبله علاقته بخالق الوجود ومدبر الكون.

وقد امتازت تعاليم الإسلام بخصيصة عامة وسمة بارزة تشيع فى كل ناحية من نواحيه سواء فى مجال الاعتقاد أو التشريع أو الأخلاق. وهذه السمة البارزة هى الوسطية[1].

---

(١) راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٩٩ – ١٤٨ مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٧٧ م.

والوسطية بصفة عامة تعنى التوازن والتوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا يستقل طرف منها بالتأثير، أو يأخذ أكثر من حقه ويتجاوز حدوده ويطغى على الطرف المقابل. وحياتنا كلها مليئة بالأمثلة العديدة لهذه الأمور المتقابلة أو المتضادة. ومن ذلك على سبيل المثال: الروحية والمادية، والواقعية والمثالية، والفردية والجماعية، والثبات والتغير، وما شاكل ذلك من أطراف متقابلة.

وقد حاول الإنسان فى القديم والحديث بمناهجه الإنسانية إقامة نوع من التوازن بين هذه المتقابلات فلم يستطع. فكل المناهج الإنسانية قد فشلت فى إقامة التوازن العادل بين هذه الأطراف المتقابلة. وأقرب الأمثلة على ذلك ما نجده سائداً فى عالمنا المعاصر من مناهج مطبقة فى المعسكر الرأسمالى أو المعسكر الشيوعى. فكل المناهج الإنسانية – كما نستطيع أن نتبين ذلك من دراسة التاريخ – تشتمل على شىء من الإفراط أو التفريط، والميل إلى هذا الجانب أو ذاك على حساب الجانب الآخر دون أن تستطيع أن تصل إلى الصراط المستقيم أو التوازن العادل.

ولا عجب فى ذلك فالإنسان مهما عظمت قدراته ومهما بلغ من العلم فإن ميوله وأهواءه تجذبه إلى هذا الجانب أو ذاك. والله وحده الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً هو العليم الخبير بمن

خلق وبما خلق، فهو الذى أحصى كل شيء عدداً، وهو الذى أحاط بكل شيء علماً، وهو وحده القادر على هداية الإنسان إلى إقامة التوازن العادل فى الوجود المادى والمعنوى على السواء.

وكل إنسان يتأمل فى هذا الكون الكبير يستطيع أن يتبين بوضوح التوازن العادل فى كل ناحية من نواحيه ابتداء من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى ما شاء الله من عوالم.

﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾[1].

وهذا التوازن العادل قائم أيضاً فى خلق الإنسان الذى يمثل الكون الصغير. ولنتأمل فقط فى حركة التنفس لدى الإنسان: إنها حركة تمثل تعادلاً بين الشهيق والزفير، فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاغياً على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق وقفت حياة الإنسان.

وما ينطبق على الجانب المادى فى الإنسان ينطبق على الجانب الروحى أيضاً من حيث ضرورة التوازن بين عقله وقلبه، وبين فكره وشعوره كشرط أساسى لاستقامة حياته. فإذا اختل هذا التوازن ارتبكت حياة الإنسان وانحرفت عن جادة الصواب.

---

(١) سورة الملك: الآية ٣.

وهكذا تكفل الله سبحانه بهداية الإنسان، وأشار إلى ما يكفل له استقامة حياته، فوضع للإنسان منهجاً لحياته كلها مادية وروحية وفردية وجماعية. وأعلن القرآن الكريم تميز الأمة الإسلامية بهذه الصفة العظيمة وهى التوازن أو الوسطية التى أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[1] فهى أمة العدل والاعتدال، تشهد على كل انحراف عن صراط الله المستقيم.

وهذه الوسيطة التى اختصت بها الأمة الإسلامية مستمدة من وسطية منهجها وهو منهج الاعتدال والتوازن الذى سلم من الإفراط أو التفريط ومن الغلو أو التقصير.

وقد اختص الله الأمة الإسلامية بالوسطية لأنها الأمة التى اختصت بالرسالة الخالدة التى ختم الله بها كل رسالاته السابقة. فقد كانت الرسالات السابقة رسالات مرحلية محدودة بحدود الزمان والمكان ومرتبطة بالظروف المحيطة بها. فعندما تمادت اليهودية فى المادية وجدنا الديانة المسيحية تميل إلى الطرف المقابل وهو النزعة الروحية. وقد كان ذلك رداً على الغلو فى الطرف المقابل. ولكن الإسلام نظراً لأنه هو الرسالة الأخيرة

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

في قصة اتصال السماء بالأرض عن طريق الأنبياء والرسل، لم يكن له أن يقف عند حد الرد على نزعات غلت وتطرفت في اتجاه ما، وإنما جاء يمثل عودة إلى الحد الوسط العدل، أى الصراط المستقيم.

والوسطية الإسلامية لها معان عديدة، ومن هذه المعانى: العدل. ومن هنا كانت الأمة الإسلامية شاهدة على البشرية كلها بهذا المفهوم. فمن الضرورى لقبول الشهادة أن يكون الشاهد عدلاً.

وقد ورد تفسير الوسط فى الآية التى معنا بالعدل مروياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أنه - عليه الصلاة والسلام - قد فسر الوسط هنا بالعدل. والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى. وقد ذكر المفسرون أيضاً فى قوله تعالى ﴿ **قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾[1] أى أعدلهم.

ومن معانى الوسطية أيضاً الاستقامة، أى استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف، وهو الذى عبر عنه القرآن بأنه الصراط المستقيم. ومن هنا علّمنا القرآن أن نسأل الله فى حياتنا

---

(١) سورة القلم: الآية ٢٨.

الهداية للصراط المستقيم ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾.

كما تعنى الوسطية أيضاً الخيرية، فخير الأمور الوسط - كما كانت العرب تقول فى حكمها. وكما يقال أيضاً: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أى خيرها، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وسطاً فى قومه أى أشرفهم نسباً.

وقد تمثلت هذه الوسطية الإسلامية فى أمور عديدة من بينها[1]:

(أ) مجال الاعتقاد: إذ معتقد المسلمين وسط بين معتقد الخرافيين الذين يؤمنون بالخرافات والأوهام ومعتقد الماديين الذين يؤلهون المادة، ووسط بين الملاحدة والمعددين للآلهة، ووسط بين الذين يؤلهون الإنسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية.

(ب) مجال الشعائر والعبادات: فقد جعل الإسلام المسلم موصولاً دائماً بربه عن طريق شعائر يومية كالصلاة، وأسبوعية كالجمعة، وسنوية كالصوم، أو مرة فى العمر كالحج، ولكنه

---

(١) راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٢٧ وما بعدها.

لم يطلب من المسلم أن يكون راهباً ينقطع للعبادة فى المساجد والخلوات. بل أمره أن يخرج بعد انقضاء الصلاة للسعى على رزقه ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[1].

وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم - كما جاء فى صحيح البخارى - ثلاثة من أصحابه يتحدثون عن عبادتهم ولاحظ أنهم يبالغون في العبادة إلى حد إهمال مطالب الجسد إهمالاً يخرج عن الحد المعقول، الأمر الذى من شأنه أن يتلف الجسم. فقد قال أحدهم: إنه يقضي ليله دائماً فى الصلاة ولا ينام، وقال الآخر: إنه يواصل الصوم ولا يفطر، وقال الثالث: إنه يعتزل النساء ولا يتزوج أبداً.

وكان هؤلاء الثلاثة قد سألوا قبل ذلك عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالوها أى وجدوها قليلة بالنسبة لما يفعلون. فلما خرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ما معناه: «أنتم الذين تقولون كذا وكذا. قالوا: نعم يا رسول الله. قال: والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصلى وأرقد،

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١٠.

وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1].

(ج) مجال الأخلاق: فقد خلق الله الإنسان من عنصرى المادة والروح، فالإنسان إذن ليس ملكاً، ولكنه من ناحية أخرى ليس حيواناً، إنه جسم وروح. والإسلام لا يريد أن يغلب أحدهما على الآخر بطريقة تخل بالتوازن بينهما، وإنما يحرص على إقامة التوازن بين مطالب الجسم ومطالب الروح فى تناسق رائع. فالإنسان له أن يتمتع بكل الخيرات التى أحلها الله له فى هذه الحياة، وفى الوقت نفسه لا ينبغى له أن يهمل مطالب روحه. يقول القرآن الكريم فى ذلك: **﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾**[2].

ومن هنا كان الإسلام وسطاً بين المادية والروحية. وقد اشتمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم على هذين الجانبين حين قال: **«اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى،**

---

(١) انظر نص الحديث فى صحيح البخارى مروياً عن أنس بن مالك (كتاب النكاح).

(٢) سورة القصص: الآية ٧٧.

واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر»[1].

(د) مجال العقل والنقل: فقد ميز الله الإنسان بالعقل. والعقل منحة من الله ليميز بها الإنسان بين الخير والشر والنافع والضار، ويدرك بها حقائق الأشياء. والعقل هو الذى دلنا على وجود الله وقدرته وعظمته. ولكن العقل محدود لا يستطيع أن يعرف كل شيء، ومن هنا جاء الوحى الإلهى مكملاً للعقل الإنسانى، وآخذاً بيده إلى الصراط المستقيم. والإسلام لا يريد أن يلغى العقل لحساب الشرع ولا أن يلغى الشرع لحساب العقل - فهما - كما يقول حجة الإسلام الغزالى - متعاضدان، بل متحدان. فالعقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج.

ومن هنا يقول فىكتابه «**معارج القدس**»:

«اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس»[2].

---

(١) رواه الإمام مسلم فى الدعوات عن أبى هريرة (راجع فيض القدير ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) انظر: معارج القدس للغزالى: ص ٤٦ (المكتبة التجارية الكبرى).

وقد أعطى الإسلام للعقل حق الفهم والإدراك لما جاء به الوحى وفى ذلك دعم وتعضيد وتثبيت للإيمان. ولكن العقل فى الجانب الآخر ملتزم بكل ما جاء به الوحى على لسان النبى صلى الله عليه وسلم من تعاليم، فالأنبياء - كما يقول الإمام الغزالى أيضا - أطباء أمراض القلوب. ومن هنا فعلى العقل أن يلتزم بما يصفه له الطبيب المرسل من عند الله دون اعتراض مادام قد آمن قبل ذلك بالله وقدرته على إرسال الرسل وإنزال الوحى وإجراء المعجزات على أيديهم.

وفى هذا الصدد يقول الإمام الغزالى فى كتابه (**المنقذ من الضلال**):

«وعلى الجملة: فالأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يدرك بعين النبوة، ويأخذ بأيدينا، ويسلمنا إليها تسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين وإلى ها هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه»[1].

وهذا يوضح لنا بجلاء علاقة العقل بالوحى. فالعقل هنا له وظيفتان هامتان:

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٣ - تحقيق د. عبد الحليم محمود. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م.

أولاً: مهمة إرشادنا إلى الوحى والتصديق بالنبوة.
ثانيا: مهمة القيام بإدراك الموحى به وتفهمه[1].

(هـ) **مجال التشريع**: فقد جاءت التشريعات الإسلامية فى حدود القدرة الإنسانية: ليس فيها إرهاق يثقل كاهل الناس، كما أنه ليس فيها تهاون يؤدى إلى الفوضى والفساد. وهكذا جاءت وسطاً بين الإفراط والتفريط، ووسطاً بين الفردية والجماعية. فالفرد له حقه فى صيانة «دمه وماله وعرضه ودينه وعقله»، وقد جعلت الشريعة الإسلامية هذه الحقوق الخمسة أهم مقاصدها. وفى مقابل هذه الحقوق قرر الإسلام واجبات على الفرد إزاء المجتمع. فممارسة كل هذه الحقوق الفردية المشار إليها مشروطة بما لا يجلب على المجتمع أية أضرار، أو يؤدى إلى إشاعة الفوضى والفساد.

---

(١) انظر كتابنا: المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت – ص ١٥٥ – ١٦٠ دار المعارف ١٩٩٨م.

عقائد الإسلام الأساسية

بعد أن تحدثنا بصفة عامة عن بعض الملامح البـارزة للإسلام نأتى الآن للحديث بشىء من التفصيل عن العقائد الأساسية التى جاء بها الإسلام. وهذه العقائد تتمثل فى الإيمان بالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

والإيمان بهذه العقائد يتضمن الإيمان بكل ما أتى به الرسـول صلى الله عليه وسلم من عنـد ربـه متمثـلا فـى الشـعائر الدينيـة والتعاليم الأخلاقية والتشريعات المنظمة لحيـاة الإنسـان الهادفـة إلى صلاحه فى دنياه وسعادته في الآخرة. وفى الأمر بالأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسـلم يقـول القـرآن الكريـم ﴿ **ومـا آتـاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1].

١ - دين التوحيد الخالص:

لقـد عُـرِف الإسـلام منـذ اللحظـة الأولى بأنـه ديـن التوحيـد الخالص الذّى لا تشوبه شـائبة. ومـن هنـا كـان شـعار المسـلمين ولا يزال وسيظل إلى أن تقوم الساعة هو: «**لا إله إلا الله**». ونحن عندما نقول: «**لا إله إلا الله**» فإننا بذلك ننفى الألوهية عن غـير الله، ونثبت الألوهية لله وحده.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

ولفظ الجلالة (الله) من الأسماء التى تدل على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها. ومن ناحية أخرى لا يطلق لفظ الله على أحد غير الله، لا حقيقة ولا مجازاً. فهو اسم يختص به المعبود الحق وحده.

وتدل «لا إله إلا الله» على التوحيد الخالص الذى هو السمة البارزة للعقيدة الإسلامية. ودعوة التوحيد هى: دعوة إلى تحرير الإنسان من كل شكل من أشكال العبودية. فلا عبودية إلا لله وحده، ولا تقديس إلا لله وحده، ولا سجود إلا لله وحده. والبشر بعد ذلك كلهم متساوون لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. وبهذا سمت عقيدة التوحيد بنفوس المؤمنين، وأصبحت مصدر عزتهم. ويكفيهم شرفاً أن الله قد قرن عزة المؤمنين بعزته وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[1].

والوحدانية فى الألوهية أمر لا يحتاج إلى جهد عقلى ليصل الإنسان إلى إدراكه، فهى من الأمور التى تعد من قبيل البديهيات. فلو كان هناك إلهان - أو أكثر - لاختلفا، ولفسد الخلق. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **لو كان فيهما آلهة**

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

إلا الله لفسدتا ﴾[1]. ويقول أيضا ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمَّا يصفون ﴾**[2].

وهكذا اتجهت دعوة الإسلام بالتوحيد إلى الناس كافة، محذرة من الشرك به - سبحانه - أو اتخاذ الأرباب من دونه، فذلك فوق أنه كفر بالله وبنعمته، هو أيضاً نكسة فى الفطرة البشرية الصافية التى فطر الله الناس عليها.

وكما أن الألوهية تستلزم الوحدانية الخالصة فكذلك تستلزم الإيمان بأنه تعالى متصف بجميع الكمالات التى تليق بذاته تعالى. فهو سبحانه منزه عن أن يكون له شبيه من خلقه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**[3]. ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾**[4]. عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

وهو وحده عالِم الغيب لا يُطْلِع عليه أحداً من خلقه إلا من اصطفاهم لرسالته إلى الخلق، سبحانه قادر على كل شيء، وعنايته تمتد إلى كل شيء، ورحمته وسعت كل شيء، وبيده ملكوت السموات والأرض ﴿ **لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز** ﴾[1]. يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وقد حثنا على أن نتوجه إليه وحده بالدعاء ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾[2] سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم، وإليه المرجع والمصير، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير.

وعلينا أن نتخذ من الصفات الإلهية مثلنا الأعلى ونجعلها غايتنا. «فصفات الحب والرحمة التى هى: **الرؤوف، الودود، التواب، العفو، الشكور، السلام، المؤمن، البار، رفيع الدرجات، الرزاق، الوهاب، الواسع**، كلها صفات يجب على الإنسان اتخاذها نبراسا للسير على هداها والتحلى بها، فكمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه»[3].

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٣) راجع: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٧٣ - دار الكتاب العربى بيروت وانظر: المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالى ص ٢١ - مكتبة القاهرة.

٢ – الإيمان بالرسل:

إن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته المطلقة يتضمن قدرته سبحانه على إرسال الرسل وإنزال الوحي لهداية البشر. وقد اصطفى الله الرسل من بني الإنسان ليكونوا مثلا عالياً على أرض الواقع، ونماذج حية تمشي بين الناس. ولم يختص الله بالهداية الربانية أمة دون أمة، بل أرسل الرسل لجميع الأمم ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[1]. فكانوا – عليهم السلام – مبشرين لمن اطاع واهتدى، ومنذرين لمن انحرف وبغى، حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل. فالله سبحانه وتعالى عادل لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد أن يبلغه أوامره ونواهيه على لسان رسله. يقول الله تعالى ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[2].

ولا يستقيم إسلام المسلم، ولا يصح إيمانه بدون الإيمان برسل الله جميعاً. ونحن مكلفون بالإيمان بهم على سبيل الإجمال، لأن الله سبحانه قد أرسل رسلاً كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو سبحانه. وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من**

---

(١) سورة فاطر: الآيه ٢٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[1].

أما الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن الكريم بأسمائهم فيجب علينا الإيمان بهم على التفصيل الوارد فى شأنهم، وعددهم «خمسة وعشرون» ذكر القرآن منهم «ثمانية عشر» فى سورة الأنعام (الآيات ٨٣ وما بعدها) فى قوله تعالى ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾**[2].

أما الأنبياء السبعة الباقون فهم: إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ورسل الله معصومون من التورط في الإثم، ومنزهون عن الوقوع في المعاصي. فلا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرماً، ولا يتصفون

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٨.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٦.

إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منـهم القـدوة الحسنة ، والمثـل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصـول إلى كمـالهم المقدر لهم[1].

والإيمان برسل الله جميعاً لا يتجزأ. فلا يجوز الإيمان ببعضهم ورفض الاعتراف بالبعض الآخر، فذلك عين الكفر كما يشـير إلى ذلك القرآن الكريم فـى قولـه تعـالى: **﴿ إن الذيـن يكفـرون بـالله ورسـله ويريـدون أن يفرقـوا بـين الله ورسـله ويقولـون نؤمـن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخـذوا بـين ذلـك سـبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا ﴾**[2].

ووجوب الإيمـان بكـل رسـل الله أمـر ينفـرد الإسـلام بجعلـه أساساً لا يصح الإيمـان بدونـه، فكلـهم جميعـاً رسـل الله جـاءوا لهداية البشر بأمر الله. وإنه لمن مخالفة المنطق إذن أن يفرق المرء بينهم أو يؤمن ببعضهم ويكفر بالبعض الآخر، فـهذا شـأنه شـأن من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر، وشـأن مـن يقـرأ قوله تعالى: **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصـلاة ﴾**[3]. ويكتفـى بهذا القدر متغاضياً عن بقية الآية.

---

(١) انظر: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٨٢.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٥٠ – ١٥١.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

وقد صور النبى صلى الله عليه وسلم علاقته بالأنبياء من قبله تصويراً رائعاً حيث يقول: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فاحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية (من زواياه)، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[1].

ومن هذا يتضح لنا أن الرسالات السماوية سلسلة متصلة الحلقات تسلم كل حلقة منها إلى التى تليها، وتكتمل فى النهاية بخاتمة هذه الحلقات برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما أراد الله رب العالمين.

٣ - الإيمان بالكتب السماوية:

والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالوحى الذى أنزله الله عليهم لهداية البشر. يقول القرآن الكريم: ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[2]. ولكن القرآن أخبرنا أن أصحاب الديانات السابقة قد غيروا وبدلوا وحرفوا فى الوحى الذى جاءهم من عند الله.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب ١٨.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

ومن هنا كان القرآن الكريم متضمناً ومصدقاً لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة من حقائق، وفى الوقت نفسه مهيمناً عليها وحاكماً على ما أصابها على يد أتباعها من تحريف. وفى ذلك يقول الله تعالى: **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾**[1].

ونظراً لأن القرآن الكريم هو كلمة الله الأخيرة للبشر فقد تكفل الله سبحانه بحفظه وصيانته من أن تمتد إليه يد التحريف أو التغيير أو التبديل **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[2]. وذلك حتى يبقى حجة خالدة باقية ما بقيت السموات والأرض، ينشر نور الله وهدايته فى كل مكان بإذن الله.

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦.

٤ - الإيمان بالملائكة:

ومثلما نحن مأمورون بالإيمان بالرسل والكتب السماوية فنحن مأمورون أيضاً بالإيمان بالملائكة بوصفهم من مخلوقات الله - وهو على كل شيء قدير - فلهم طبيعة تختلف عن طبيعة البشر، وهم من عالم الملأ الأعلى الذى لا يدرك بالحواس، وهم مطهرون من الشهوات والميول والآثام ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[1]. وقد خلقهم الله قبل خلق الإنسان. وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيئته، ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم، ويقومون بالمهام الموكولة إليهم كما أمروا دون زيادة أو نقصان، وهم متفاوتون فى درجاتهم وفى أعمالهم. ومن هذه الأعمال التسبيح وحمل العرش والنزول بالوحى (وهذه هى مهمة جبريل عليه السلام) والدعاء للمؤمنين وتثبيتهم وكتابة أعمال الإنسان من حسنات وسيئات وغير ذلك من أعمال فى عالم الروح وفى عالم المادة وفى عالم الإنسان.

والإيمان بوجود الملائكة مقرون بالإيمان بالله ورسله وكتبه فى آيات عديدة فى القرآن الكريم. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾[2].

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

٥ – الإيمان باليوم الآخر:

لقد جاءت الديانات السماوية كلها تقول بحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، وهناك شعور لدى الإنسان منذ القدم بأن هذه الحياة الدنيا ما هى إلا مرحلة عابرة تعود بعدها النفس بعد مفارقتها للبدن إلى حياة أخرى – وكان لهذه العقيدة لدى قدماء المصريين مثلا رسوخ كبير فى النفوس جعلهم يحنطون الموتى، وذهب غيرهم إلى القول بتناسخ الأرواح أو القول بعودة الروح إلى التجرد التام عن المادة.

والعقل السليم لا يمكن أن يقبل مساواة الأخيار بالأشرار والصالحين بالفجار. فهذا ليس من العدل فى شىء، ومن أجل ذلك لابد أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة يلقى فيها كل إنسان جزاء ما قدم، إن خيراً فجزاؤه خير، وإن شراً فجزاؤه شر. فالحياة الدنيا إذن ليست نهاية المطاف وإنما نهايتها بداية لحياة أخرى.

والإيمان بالدار الآخرة شرط أساسى من شروط الإيمان فهى الدار التى يفصل الله فيها بين الناس أجمعين **﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾**[1]. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى أيضاً **﴿ أم**

---

(١) سورة الدخان: الآية ٤٠.

حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[1].

وقد أنكر الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها – أنكروا ان تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، يقول القرآن الكريم على لسانهم ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾[2].

وقد سخر المشركون من البعث بعد الموت، واعتبروه أمراً مستحيلاً، وذهب أحدهم وهو «أبى بن خلف» إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ معه عظماً بالياً ظل يفتته أمام الرسول ويقول: يا محمد أترى أن الله يحيى هذا بعد ما قد رم وبلى؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم. وقد رد عليهم القرآن فى قول الله تعالى: ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى**

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٢١ – ٢٢.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ›[1].

فالبعث ليس بالأمر العسير. والله الذى خلق هذا الوجود من العدم، ولم يمسه تعب ولا نصب لقادر على أن يعيد خلق الناس ويبعثهم جميعاً، وهذا البعث أسهل عليه من الخلق الأول كما يقول القرآن أيضاً **‹ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ›**[2].

ولاشك أن الإيمان بالدار الآخرة يتضمن الإيمان بالقيم الخلقية والمثل العليا، لأنه إذا لم تكن هناك دار أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فليس هناك إذن أى معنى للالتزام بالقيم الخلقية أو المثل العليا. وهكذا نجد أن عقيدة الإيمان بالدار الآخرة لها دور كبير فى صلاح المجتمع والتزامه بالقيم وتمسكه بمبادئ الأخلاق القويمة، كما أنها من ناحية أخرى تبعث فى النفوس الأمل، وتملأ قلوب المظلومين بالثقة فى عدل الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء. يقول الله تعالى فى ذلك

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٧ – ٨٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1].

وعندئذ يفصل الله بين الناس ويلقي كل إنسان جزاء ما قدم، ويسعد المتقون ويساقون إلى الجنة، ويشقى الكافرون ويساقون إلى النار ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[2].

٦ - الإيمان بالقضاء والقدر:

ينبنى الإيمان بالقضاء والقدر على الإيمان بالله - عز وجل - وبأسمائه الحسنى، وصفاته الكاملة التى من بينها علمه الواسع المحيط بكل شيء، وإراداته الشاملة، وقدرته الكاملة. فهو سبحانه - فعال لما يريد، قدّر الأشياء فى الأزل وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهى تقع حسب ما قدرها سبحانه.

ويمكن تعريف القَدَر بأنه «النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود. والقوانين العامة، والسنن التى ربط الله بها الأسباب بمسبباتها»[3]

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) انظر: العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٩٥، وأيضاً عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١١٥ وما بعدها - الدوحة - ١٩٨٣م.

ولا يجوز لعاقل أن يركن إلى التواكل اعتماداً على عقيدة القضاء والقدر، فلا يسعى فى رزقه ولا يعمل لغده مادام كل شىء قد قدره الله فى الأزل. فالقدر أمر محجوب عنا لا نعرفه فهو غيب، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله **﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ۝ إلا من ارتضى من رسول ﴾**[1].

فالإيمان بالقضاء والقدر إذن ليس قيداً على حركة المؤمن. صحيح أن الله - سبحانه وتعالى - علم فى الأزل ما الذى سيختاره كل فرد من أفراد البشر بمحض إرادته - فليس هناك إكراه، ولهذا كان أمراً طبيعياً وعدلاً أن يجازى كل امرىء على ما عمل **﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾**[2]، **﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾**[3]. فلو كان هناك إجبار محض لما كان هناك مكان للمسئولية، ولكن لما كان هناك ثواب وعقاب، كان ذلك نتيجة للمسئولية: مسئولية التكليف التى حملها الإنسان.

ومن أجل ذلك لا يجوز بحال من الأحوال أن يقترف الإنسان السيئات ويفعل المعاصى، ثم يقول هذا قضاء الله، وهذا أمر

---

(١) سورة الجن: الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٣) سورة المدثر: الآية ٣٨.

قدره الله عليّ فلا حيلة لى فى ذلك. ومن الأمثلة التى تروى فى هذا الصدد ما ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتِىَ له بسارق فقال له عمر: لم سرقت؟ فقال الرجل: قضاء قضاه الله عليّ، فأمر عمر بقطع يده وجلده. فروجع عمر فى ذلك إذ عاقب الرجل بأكثر مما يستحق، فحد السرقة هو القطع فقط أما الجلد فأمر زائد لا مبرر له، فقال عمر: القطع للسرقة والجلد للكذب على الله. إذ من أين للسارق أن يعلم أن الله قد كتب عليه ذلك.

وقد ورد فى الأثر: «مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله».

فالإيمان بالقضاء والقدر فى الإسلام لا يدفع إلى السلبية، ولا يمنع المسلمين من الأخذ بالأسباب، ولا يحملهم على التحلل من مسئولية التكليف، ولا يحملهم على عيشة التواكل والتمنى الفارغ، ولا تشكل هذه العقيدة عقبة فى طريق تقدمهم وازدهارهم كما يزعم خصوم الإسلام.

ولنا أسوة حسنة فيما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون. لقد فهموا الحياة وعاشوها سعياً وكفاحاً وجهاداً متواصلاً فلم يتواكلوا أو يكسلوا.

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى قوماً قابعين فى المسجد بعد الصلاة بدعوى التوكل على الله، فقال لهم قولته المشهورة «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة». وإن الله تعالى يقول ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[1].

فالقضاء والقدر - كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت - ليسا سوى «النظام العام الذى خلق الله عليه الكون، وربط فيه بين الأسباب والمسببات، والنتائج والمقدمات، سنة كونية دائمة لا تتخلف، وكان من بين تلك السنة أن خلق الله الإنسان حراً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور»[2].

فلا يجوز لأحد أن يعتذر عن التقصير فى واجب بالقضاء والقدر، إذ لو صح هذا لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل

---

(١) سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٢) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٥٠ دار الشروق ١٩٨٣م.

وإنزال الكتب والوعد بالثواب والعقاب عبثـاً وبـاطلاً، تعـالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الفصل الثانى
تأملات حول الإنسان
فى ضوء تعاليم الإسلام

تمهيد :

الموضوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هذا الفصل يعد من القضايا الكبرى فى هذا الوجود[1]، بل لا نبالغ ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن هذا الموضوع هو قضية القضايا فى هذا الوجود. فالإنسان هو محور الكون وهو سيد فى هذا الكون، فكل شىء فى هذا الوجود مسخر له، والديانات كلها جاءت من أجله، والقرآن الكريم كله يدور حوله، فكل ما فى القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان. فالوحى السماوى كله قد اتجه بالخطاب إليه. فلماذا إذن لا يكون موضوع الإنسان هو قضية القضايا فى هذا الوجود؟ إنه بدون الإنسان لا توجد قضية ولا توجد هناك مشكلة. انظروا إلى الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد أن يخلق البشر، ماذا قالوا : **﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**[2]. فالعالم فى منطق

---

(١) لقد كان هذا الموضوع فى الأصل محاضرة ألقيناها منذ بضع سنوات فى المركز العام للشبان المسلمين بالقاهرة. وننشرها هنا دون تعديل أو إضافة.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الملائكة بدون الإنسان يعد واحة سلام، ليس فيه مشكلة أو قضية طالما لم يكن هناك إنسان. ولكن أى عالم هـذا الـذى لا يستطيع أن يعي نفسه ولا حيلة له من أمر نفسه؟ إنه يكون عالماً لا طعم له ولا لون له. ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق كائناً يدرك نفسه ويدرك ما حوله ويـدرك خالقـه. وبذلـك يكـون للوجود معنى، ويكون وجود الإنسـان مـن أجـل هـدف حددتـه الإرادة الإلهية. وهو العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

والعبادة تفترض معرفة العابد لمعبوده. فهى عبادة قائمة علـى وعى وإدراك،وقائمة على اختيار من جانب العابد لمعبوده. ومـن هنا فإن أول القضايا التي يجب أن تبحث والتى ينبغى أن تكون دائما محور البحث هى قضية الإنسان. فكل القضايا الأخرى فى هذا الوجود ليست إلا تفريعات عن هذه القضية. ومـن هنـا اهتـم المفكرون والفلاسفة منـذ القـدم بـهذا الموضـوع الكبـير. وكـل أدلى بدلوه في هذه القضية الكبرى. فقد وجدنـا الفلاسـفة منـذ القـدم يعرِّفون الإنسان بأنـه حيـوان نـاطق، أى كـائن عـاقل. ووجدنـا الأخلاقيين يعرفون الإنسان بأنه حيوان أخلاقـى، أى كـائن لـه قيم، فهو الوحيـد فـى هـذا الوجـود الـذى لـه قيـم يلـتزم بـها.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

ووجدنا الاجتماعيين يقولون: الإنسان كائن اجتماعى، ووجدنا علماء الدين يقولون: الإنسان كائن متدين لأنه لا يوجد على ظهر الأرض كائن لـه هذه الخاصية التى هى التدين إلا الإنسان. فالإنسان إذن كان ولايزال وسيظل هو محور البحث والتفسير لدى الفلاسفة والمفكرين ولدى كل الطوائف من جميع الأديان المختلفة.

بداية الإنسان:

فماذا كانت البداية؟

البداية - كما نعلم جميعا - كانت عندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين، أى من مادة. ولو كان الأمر قد اقتصر على ذلك لما كانت هناك أية مزية للإنسان على غيره من الكائنات. ولكن الله سبحانه وتعالى أضاف إلى ذلك من روحه هو شيئا آخر لهذا الكائن المادى، وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى** ﴾[1].

فهو الكائن الوحيد في هذا الوجود الذى نفخ الله فيه من روحه، ونسب ذلك إلى نفسه سبحانه وتعالى. وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية هى مناط التكريم الذى حظى به الإنسان.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

ومن هنا طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريما له، ليس لأنه خلق من طين، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى قد نفخ فيه من روحه. ولكن إبليس أبى واستكبر ورفض وقال - كما يقول القرآن الكريم -: **﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾**[1].

فإبليس نظر إلى الجانب المادى فقط، وغفل عن الجانب الآخر - وهو الجانب الروحى - والذى هو مناط التكريم فى الإنسان. ومن هنا كان إبليس إلى يوم الدين هو زعيم الماديين فى كل العصور الذين ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية بحتة، ولا يلتفتون إلى الجانب الروحى فيه والذى هو مناط التكريم، وبعد التكريم الإلهى للإنسان بسجود الملائكة له، وبتعليم آدم الأسماء كلها، أهبطه الله سبحانه وتعالى إلى الأرض لحكمة أرادها، ليعمر هذه الأرض بعد أن سلحه بالأدوات التى تعينه على أداء وظيفته فى هذه الحياة حتى يحقق مفهوم العبادة لله وحده فى هذا الوجود.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦١.

خصائص الإنسان:

ومن هنا امتاز الإنسان بخصائص وميزات لم تتوفر لكائن آخر غير الإنسان. ونختار من بين هذه الخصائص الهامة خمس خصائص:

أولاً: خلافته لله فى الأرض.

ثانياً: تفضيله على جميع المخلوقات.

ثالثاً: تمييزه بالعقل.

رابعاً: تسخير الكون كله من أجله.

خامساً: تمييزه بالحرية وتحمله المسئولية عن هذا الكون.

وفيما يلى بيان ذلك

أولاً: خلافة الإنسان فى الأرض:

أما عن العنصر الأول وهو الخلافة لله فى الأرض فهذا أمر قد نص عليه القرآن الكريم فى قوله:

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[1].

فماذا يعنى ذلك بالنسبة للإنسان؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

يعنى هذا أن الله إذا كان قد كتب على نفسه الرحمة فإن خليفته ينبغي أن يكون رحيما، ويعني أن الله إذا كان لا يظلم أحداً فينبغي أن يكون خليفته عادلاً لا يظلم أحدا. وبالعدل والرحمة ينتظم هذا الكون. وإذا كان الله قد كتب لنفسه العزة ولرسوله وللمؤمنين فلا ينبغي لخليفته أن يفرط في هذه العزة التى كتبها الله له، بل ينبغي عليه أن يصونها ويحافظ عليها ويحميها بكل الوسائل.

ثانياً: تفضيل الإنسان على الكائنات الأخرى:

أما العنصر الثاني وهو تفضيل الإنسان على غيره من الكائنات فإن الله قد كرم الإنسان كما جاء في قوله تعالى:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[1].

وهذه الكرامة التي اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، : فهي حماية إلٰهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضا على حقه في الأمن على نفسه وماله وذريته. ومن أجل ضمان الحماية الإلٰهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية وهي:

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠.

حفظ النفس وحفـظ الديـن وحفـظ العقـل وحفـظ المـال وحفـظ النسل. فهذه المقاصد الخمسة تهدف كلها لحماية الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعـالى. فـالنفس الإنسـانية لا يجـوز الاعتـداء عليها بأى حال من الأحوال. وقد جعـل الإسـلام الاعتـداء علـى فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة اعتداء علـى البشـرية كلـها، وفى المقابل جعل تقديـم الخـير لفـرد واحـد مـن أفـراد البشـرية بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها:

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فـي الأرض فكأنمـا قتـل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾[1].

ومـن هنـا نجـد أن هـذا التكريـم الـذى اختـص بـه الإنسـان لم يحظ به أى كـائن آخـر فـى هـذا الوجـود، لأن الإنسـان هـو الكائن الذى جعله الله سبحانه وتعالى خليفة فـى الأرض. ولكـن هناك مفارقة تسـتحق التـأمل بعـض الشـىء، وهـى أن الإنسـان أحيانا نجده يحس بقوته وجبروته وعظمته، ويعتبر نفسـه كأنـه ليس هناك من هو أقوى منه فى هذا الوجـود مثلمـا قـال فرعـون **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[2].

---

(١) المائدة: الآية ٣٢.

(٢) النازعات: الآية ٢٤.

ولكن فى الجانب الآخر نجد أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان خلق ضعيفا. ويتجلى لنا هذا الجانب الآخر بوضوح إذا عقدنا مقارنة بين الإنسان من جانب وبين الحيوانات الأخرى من جانب آخر. فهناك كثير من الحيوانات تتميز أو تمتاز على الإنسان فى كثير من الأمور التى تجعلها تحافظ على حياتها وعلى وجودها فى حين يفتقد الإنسان كل هذه الأمور التى سأشير إلى بعض منها فيمايلى:

إن قدرة الإنسان محدودة من حيث الجوارح المختلفة. فنحن نجد قدرته مثلا على الإبصار محدودة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن ترى إلى مسافات بعيدة، وقدرته على السمع محدودة أيضاً بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تمتد قدرتها على السمع إلى مسافات بعيدة، وقدرته على الشم محدودة كذلك بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تشم إلى مسافات بعيدة. ثم إن طفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تقف على رجليها بعد الولادة بساعات وتعتنى بنفسها. ولكن الإنسان حمله وفصاله ثلاثون شهراً، وبعد ذلك لا يستطيع أن يعتمد على نفسه، بل يظل فى حاجة إلى عناية ورعاية مدة طويلة. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك كثيراً من الحيوانات لها مخالب وأنياب تستطيع بها أن

تحمى نفسها وتدافع بها عن وجودها ضد أعدائها فى حين أن الإنسان ليس لديه شيء من ذلك.

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من الحيوانات أو كلها قد خلقها الله سبحانه وتعالى قادرة على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد، ولكن الإنسان إذا ترك عريانا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت.

وعلى الرغم من هذه المفارقة فقد استطاع الإنسان أن يخضع كل ما فى هذا الوجود لإرادته: استطاع أن يستأنس الحيوانات المفترسة، واستطاع أن يتغلب على كل الصعاب التى صادفته فى هذا الوجود. وذلك بفضل شيء واحد امتاز به على كل أنواع الحيوانات المختلفة وهو العقل الذى وهبه الله سبحانه وتعالى إياه[1].

ثالثاً: العقل الإنسانى:

وبهذا نصل إلى العنصر الثالث من الخصائص التى اختص بها الإنسان وهو العقل. فالعقل الإنسانى – كما سبق أن أشرنا – هو الشيء الذى يمتاز به الإنسان عن جميع الحيوانات والذى

---

(١) راجع: مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى (ومن ترجمتنا) ص ٩١ وما بعدها – دار الفكر العربى ١٩٩٦م.

به يدرك نفسه ويدرك الكون من حوله ويدرك خالقه. هذا العقل يعد نعمة كبرى من نعم الله على الإنسان فى هذا الوجـود. ومـن هنا لا يجـوز للإنسـان أن يعطـل العقـل عـن أداء وظيفتـه مثلمـا لا يجوز له أن يعطل جارحة من الجوارح التى أنعم الله بها على الإنسـان عـن أداء وظيفتـها مثـل اليـد والرجـل والعـين والسـمع والشم.. إلخ فهذه كلها جوارح خلقـها الله للإنسـان لتـؤدى كـل منها وظيفة معينة، والعقل خلقه الله تعالى أيضا للإنسان ليـؤدى وظيفة معينة، فتعطيله عن أداء وظيفته تعطيل لنعمة من نعم الله تعالى عن أداء وظيفتها. ولهذا يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يعطلـون عقولهـم عـن التفكـير ويصمـون آذانـــهم ولا يبصـــرون، أو لا يريدون أن يبصروا، ما حولهـم – يعـبر القـرآن الكريـم عـن هؤلاء بقوله:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ﴾[1].

ولو كانت الآية قد وقفت عند هذا الحد فقـط لكـان فـى ذلـك ظلم للأنعام لأن الأنعام لا تعقل. ولكن الآية استدركت:

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

فهم أقل مرتبة من الحيوانات لأن الإنسان الذى يعطل عقله عن التفكير هو إنسان تنازل عن إنسانيته. ومن هنا لا يستحق أن يطلق عليه وصف الإنسان لأنه ارتضى لنفسه أن يكون فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان. ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى العقل مسئولية من المسئوليات التى سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة:

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

ولهذا يخبرنا القرآن الكريم بأن الكفار سوف يلومون أنفسهم يوم القيامة لأنهم لم يستخدموا عقولهم فى الدنيا:

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم ﴾[2].

أى أن عدم استخدامهم العقل الإنسانى فيما خلق من أجله يعتبر ذنبا من الذنوب. ولهذا اهتم الإسلام اهتماما كبيرا جدًا بإزالة كافة العقبات التى تعترض سبيل العقل عن أداء وظيفته، ومهد له الطريق ليمارس وظيفته حتى يقوم بأداء دوره فى هذا الوجود على خير وجه. ومن الأشياء التى اتخذها الإسلام

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

كضمانات للعقل الإنسانى ليمارس وظيفته في هذا الصدد أنه رفض التقليد الأعمى والتبعية الفكرية: رفض الإسلام التقليد الأعمى لأنه يعطل العقل عن أداء وظيفته. ولذلك عندما جاءت الرسالة المحمدية وأعلنها محمد - صلى الله عليه وسلم - لأهل مكة لم يريدوا أن يسمعوا وعطلوا عقولهم رغم أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - كان معروفا بينهم بأنه الصادق الأمين. وقبل أن يعلن رسالته جمعهم وأراد أن ينتزع منهم اعترافا أوليا فقال لهم: لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا.

وبعد أن انتزع منهم هذا الاعتراف وهو حق وصدق. قال لهم: إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. وهنا انصرفوا عنه وقالوا: تبا لك ألهذا جمعتنا. ويحكى القرآن الكريم عنهم قولهم:

﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾[1].

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[2].

فهنا تقليد أعمى لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم دون تفكير. والقرآن يريد منهم أن يفكروا ويتأملوا فيما كان عليه آباؤهم

---

(١) المائدة: الآية ١٠٤.

(٢) الزخرف: الآية ٢٢.

وأجدادهم. هل ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم حق أم باطل؟ إذا التفتوا وتأملوا قليلا سيجدون أن ما يعبدونه من أصنام يصنعونها بأيديهم لا تضر ولا تنفع. وبالتالى فإنه بالتفكير العقلى الصرف سيتبين للإنسان ذلك.

ونحن نعلم فى هذا الصدد من قصة إبراهيم - عليه السلام - أنه عندما كسر أصنام قومه جاءوه قائلين:

﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[1].

فاستهزأ بهم إبراهيم قائلا:

﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾[2].

فالمسألة فى حاجة إلى شيء من التعقل والتفكير. ومن هنا رفض الإسلام التقليد الأعمى. وقال النبى - صلى الله عليه وسلم -: **«لا تكونوا إمعة: (أى مقلدين تقليدا أعمى) إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تسيئوا مثلهم. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا مثلهم».**

---

(١) الأنبياء: الآية ٦٢.

(٢) الأنبياء: الآية ٦٣.

وهكذا أزال الإسلام هذه العقبة الكأداء التى تقف فى طريق العقل الإنسانى وهى التقليد الأعمى، أزالها الإسلام من طريق العقل حتى يستطيع أن يمارس دوره فى هذا الوجود.

أما العقبة الأخرى فتتمثل فى الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، وقد رفض الإسلام ذلك كله وما شاكله لينفسح الطريق أمام العقل الإنساني. ولذلك وجدنا النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن أهل السموات والأرض لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

وعندما مات إبراهيم بن محمد - صلى الله عليه وسلم - حزن عليه حزنًا شديدًا. وبعد أن واراه التراب ذرفت عينه. ثم تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم. وهذه ظاهرة طبيعية تحدث فى أوقات محددة بناء على قوانين وسنن كونية معينة. ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بحسن نية قالوا: لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. وعلى الرغم من شدة حزنه - عليه الصلاة والسلام - على فلذة كبده فإنه لم يرد

أن تمر هذه الحادثة بهذه الطريقة. ووقف في وجه ذلك بحزم قائلا:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياة أحد».

فعليكم إذن أيها الناس أن تحكموا عقولكم، فهذه ظواهر كونية، وسنن تسير بقدرة الله سبحانه وتعالى بناء على حسابات دقيقة. ومن هنا لا دخل فيها لموت أحد ولا لحياة أحد. وهكذا لم يترك الإسلام مكانا لأى شكل من أشكال الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، فكلها من الأمور التى تعطل العقل عن أداء دوره فى هذا الوجود.

ومن بين الضمانات الأخرى التى قررها الإسلام لتحرير العقل من القيود التى تعوقه عن أداء دوره تأكيده على مبدأ المسئولية الفردية. فكل إنسان مسئول فقط عما يفعله:

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1].

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2].

فليست هناك خطيئة موروثة. فالعقل الإنساني لا يسير وهو مثقل بأحمال غيره ممن سبقوه، ولا يسأل إلا عما فعله فقط:

---

(١) المدثر: الآية ٣٨.

(٢) فاطر: الآية ١٨.

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

وبذلك يتحرر الإنسان ويتخفف من هذه الأوزار التى تثقل كاهله والتى كان يعتقد بها أناس قبل ذلك.

وأخيرا وليس آخرا نجد أن من بين الضمانات التى اتخذها الإسلام أيضا فى هذا الصدد - لمساعدة العقل الإنسانى على أداء دوره - تحرير المؤمن من الخوف من أية سلطة دنيوية أيا كانت فى هذا الوجود لأن الله كتب له العزة التى كتبها لنفسه ولرسوله:

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[2].

والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حديث شريف:

«اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير».

ومن هنا فإذا شعر المسلم بأنه متحرر من الخوف ومن عقدة الخوف فإنه يستطيع أن ينتج ويبدع ويبتكر وينفع نفسه، وينفع مجتمعه، ويكون عضوا نافعا فى هذا الوجود. هذه الضمانات التى اتخذها الإسلام لمساعدة العقل الإنسانى لأداء دوره فى هذا العالم على أكمل وجه لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان على

---

(١) الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) المنافقون: الآية ٨.

الإطلاق، بل ينبغى أن تكـون حـاضرة دائمـا أمـام أعـين النـاس ومستقرة فى أذهانهم.

رابعا: تسخير الكون للإنسان:

أما العنصر الرابع فإنه يتمثل فى تسخير الكون للإنسان. فالله سبحانه وتعالى قد سخر هذا الكون للإنســان، وللإنسـان وحـده. ونحن نجد ذلك فى آيات كثيرة. يقول القرآن الكريم:

﴿ وسـخر لكـم الليـل والنـهار والشـمس والقمـــر والنجـوم مسخرات بأمره ﴾[1].

ويقول:

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منـــه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

وفى آية أخرى يقول:

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[3].

ولا تعنى هذه الآية أن ننظر إلى الســموات والأرض بقصـد أن نتفرج عليها ثم نفتح أفواهنا دهشة من عظمتـها، ولكـن لنتـأمل

---

(١) النحل. الآية ١٢.

(٢) الجاثية: الآية ١٣.

(٣) يونس: الآية ١٠١.

فى السموات والأرض ونسخِّر كل ما فيهما لخدمة البشرية، لأن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يعمر هذا الكون لا أن يخربه. فهذه مهمة الإنسان فى هذه الحياة.

ومن هنا فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان كل ما فى هذا الكون كما تشير إلى ذلك تلك الآية الكريمة المعبرة التى نقرؤها ولا نقف عندها:

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1].

فإننا ينبغى أن نتوقف عند عنصر التفكير الذى ورد فى نهاية الآية:

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

فهذا العنصر ضرورى وجوهرى، لأن الله إذا كان قد سخَّر لنا هذا الوجود، فلا ينبغى أن نقف منه موقف اللامبالاة، بل يجب أن يكون لنا منه موقف إيجابى، وموقفنا الإيجابى من هذا الكون يتمثل فى دراسته والنظر فيه بالعلم والفهم والتعقل حتى نستطيع أن نبتكر ونبدع ونخوض أعماق البحار والفضاء كما يفعل غيرنا، فالمسلمون الذين لديهم هذه التعاليم لا يجوز أن

---

(١) الجاثية: الآية ١٣.

(٢) الجاثية: الآية ١٣.

يكونوا سلبيين. وهذه الآية وحدها كانت كافية لتجعل الأمة الإسلامية في مقدمة الأمم في مجال الابتكارات والاختراعات في كل مجال في هذا الوجود، في الأرض وفي السماء. ولكن القرآن الكريم لم يعد لدى الكثيرين كتاباً نتدبر آياته، بل أصبح الآن - للأسف الشديد - كتاباً نقرأ به على الأموات ونصنع منه الأحجبة ونطرب لتطريب المقرئين بآياته، مع أن القرآن الكريم جاءنا لنتدبر آياته. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1].

فالتعبير بقوم يتفكرون في الآية السابقة أمر جوهري ينبغي ألا يغيب عن الأذهان على الإطلاق لأن هذا يمكن أن يؤدي بنا في النهاية إلى أن نرتقي بفكرنا ونرتقي بأفهامنا ونرتقي بالجانب المادي من ناحية أخرى. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2].

خامساً: الحرية والمسئولية:

أما العنصر الأخير وهو الحرية التي منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان فإنها مرتبطة بالمسئولية. والمسئولية هي مهمة

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الإنسان الكبرى فى هذا الوجود، ولذلك عندما عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة وهى أمانة التكليف والمسئولية على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها. ولكن الإنسان وحده هو الذى تقدم ليحمل هذه الأمانة، وحملها الإنسان. وهذه مسئوليته. فالإنسان مسئول عن هذا الكون. فإذا كان خليفة الله فى الأرض فهو مسئول عن هذا الكون وهو سيد فى هذا الكون.

فالله سبحانه وتعالى سيد هذا الكون لأنه هو الذى خلقه، ولكنه سبحانه أراد للإنسان أن يكون سيدا فى هذا الكون. ومن هنا فالمسئولية لا تقوم إلا على أساس من الحرية. فبدون الحرية لا مسئولية، ولا تكليف، لا تكليف بشيء ولا ثواب ولا عقاب على شيء على الإطلاق.

والمسئولية كما نعلم دوائر متعددة متشابكة. وكل إنسان مسئول: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» كما يقول الحديث الشريف. وكل إنسان منا مسئول مسئولية مباشرة عن نفسه أولا ثم تتسع الدائرة بعد ذلك لتشمل أسرته ومجتمعه ومسئوليته حتى عن العالم كله بمعنى معين. أما مسئوليته عن نفسه فإن الحديث الشريف يقول:

«**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به**».

عن عمره فيما أفناه: هذه إشارة إلى قيمة الوقت لأن العمر هو الزمن المحدد، هو الفترة الزمنية التى يعيشها الإنسان.

فكل دقيقة وكل لحظة من لحظات حياة الإنسان هـو مسئول عنها. فاللحظة التى تنقضى لا تعود مـرة أخـرى علـى الإطـلاق. ومن هنا ينبغى على الإنســان أن يحـافظ علـى وقتـه. وقـد كـان العرب قديمــا يقولـون: الوقـت كالسيف إن لم تقطعـه قطعـك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن الوقـت لدينـا الآن أصبح أرخص من التراب. وقد كان جمــال الديـن القـاسمى وهـو عالم من علماء دمشق فى نهاية القرن المـاضى، كـان يقـف أمـام المقاهى المكتظـة بـالزائرين الذيـن ينفقـون أوقاتـهم فيمـا لا يعـود عليهم لا بنفع ولا بفـائدة، ويـهز رأسـه عجبـا ويقـول: «لـو أن الوقت كان مما يباع ويشترى لكنت قد اشتريت من هؤلاء الناس جميعا أوقاتهم» وذلك لينفقها فيما يفيد.

خاتمـــة

والآن، ما الذى يمكن أن نستفيده من ذلــك كلـه فـى حياتنا المعاصرة؟ نحن اليوم في أشد الحاجة إلى الاستفادة من كل هـذه التعاليم الإسلامية فى تحديد مكانة الإنسان ودوره فى هذا الكون ومسئولياته عن هذا الكون حتى نعيد للإنسان المسلم كرامته التى أهـدرت وحقوقـه التـى اعتـدى عليـها. إنـه لم يكـن مـن قبيـل المصادفة أن تتحدث الآيات الخمـس الأولى مـن الوحـى القرآنـى عن الإنسان والعلم الذى يتسلح به الإنسان:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسـان مـن علـق، اقـرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1].

فهذه الآيـات الخمـس الأولى ركـزت الحديث علـى الإنسـان وقضيـة الإنســان وعلـم الإنسان، باعتبـار أن ذلـك هـــو المهمـة الأساسية للإنســان. ولذلـك علـم الله آدم الأسمـاء كلـها قبـل أن يهبطـه إلى الأرض. وهـذه إشـارة إلى العلـم الـذى تسلح بـه آدم ليستطيع أن يعمر الأرض التى أهبط إليها.

فهل يعى المسلمون ذلك مرة أخرى؟ هل يفيقـون مـن غفلتـهم بعد أن فاتهم قطار التقدم؟

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ – ٥.

إن الإنسان إذا لم يكن مادة فقط فلا يجوز له أن يتقاصر، بل يعلو ويرتفع ويسمو بنفسه وبطاقاته وقدراته حتى يحقق الهدف من خلق الله سبحانه وتعالى له في هذا الوجود. وهو هدف العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

مع الأخذ في الاعتبار أن العبادة ليست مجرد أداء للشعائر الدينية المفروضة فقط، وإنما العبادة تشمل بالإضافة إلى ذلك كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة أيا كان هذا العمل دينيا أم دنيويا طالما قصد به الإنسان وجه الله سبحانه وتعالى وجلب المصالح للناس ودفع المضار عنهم.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل..

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الفصل الثالث
الحضارة
فريضة إسلامية

تمهيد :

هناك كثير من المفاهيم التى يرددها الناس منذ أزمان طويلة ويفهمها كل فريق منهم بفهم معين يقترب أو يبتعد بدرجات متفاوتة من فهم الآخرين مما يوحى بأن الناس يفتقدون اللغة المشتركة التى تقرب ما تباعد بينهم من أفهام، وإذا كان هذا أمر يحدث على مستوى الأمم والشعوب والحضارات المختلفة فإن الأمر يبدو غريباً إذا كان ذلك يحدث بين أبناء الأمة الواحدة، ومن بين المفاهيم التى تصادف هذا الأسلوب فى التعامل معها مفهوم الحضارة، ولأهمية التحديد الواضح للمفاهيم فإننا نود فى البداية أن نلقى بعض الضوء على مفهوم الحضارة قبل الدخول إلى لب الموضوع الذى يفصح عنه عنوان هذا الفصل، ومن هنا سنقسم موضوعنا إلى قسمين على النحو التالى:

أولاً: مفهوم الحضارة.

ثانياً: الإسلام والحضارة.

ويعد أول هذين القسمين بمثابة مدخل أساسى للقسم الثانى.

أولاً: مفهوم الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) في المعاجم العربية يجد أنه يعني عكس البداوة، وهذا يعني أسلوبا مختلفا في التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكرية أيضاً نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق.

وقد أشار ول ديورانت أيضا في كتابه قصة الحضارة[1]، إلى معنى قريب من ذلك حين يقول: إن الحضارة أو المدنية في وجه من وجوهها هي رقة المعاملة، ورقة المعاملة هي ذلك الضرب من السلوك المهذب الذي هو في رأي أهل المدن - وهم الذين صاغوا حكمة المدنية - من خصائص المدينة وحدها، ويضيف قائلاً: «إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن».

ومن كل ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم، فالحضارة إذن نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: تقدمية في الفكر وفي السلوك وفي أسلوب التعامل مع الناس والأشياء. وهذا كله في إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلي الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب.

---

(١) انظر: قصة الحضارة: ول ديورانت - ج ١ ترجمة د. زكي نجيب محمود ص ٥ - القاهرة ١٩٧٣م.

وقد كان للإسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هـذه الدائرة الجديدة مؤكداً على العنصر الإنسانى الشامل: **﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾**[1].

وهذا التعارف يقتضى التفاهم والتعاونٍ المشترك فى سبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة **﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾**[2].

وقد جعل ابن خلدون الحضارة غاية العمران وفى الوقت نفسه جعلها مؤذنة بفساد العمران وذلك لأنه ربط بينها وبين «التفنن فى الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه. وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها»[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون - طبعة دار الشعب ص ٣٣٤ وما بعدها.

الطبيعة المزدوجة للحضارة:

ولكننا لا نريد أن نتابع ابن خلدون فى فهمه لهذا الجانب من الحضارة، ولعل تعريف ألبرت اشفيتسر فى كتابه فلسفة الحضارة يكون أقرب إلى ما نحن فيه حيث يقول[1]: إن الحضارة بصورة عامة هى «التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء».

وهذا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

وهذا يعنى أن الحضارة لها طبيعة مزدوجة، فهى من ناحية تحقق نفسها فى سيادة العقل على قوى الطبيعة، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان، وليس يكفى إطلاقاً أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدماً إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها كما رأينا لدى ابن خلدون.

---

(١) انظر: فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتسر - ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٣٤ (دار الأندلس - ١٩٨٠م).

وليس هناك من شك في أن هناك عوامل كثيرة تشترك معا في تكوين الحضارة، ويشير ول ديورانت في هذا الصدد إلى عوامل جيولوجية وجغرافية واقتصادية ونفسية[1].

ويفسر توينبى[2] الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس في مواجهة تحد معين، وهذا التحدى الذى تمثله الطبيعة يختلف في مستواه، وبالتالى تختلف فعالية الرد عليه من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاث: فإما أن تقوم الشعوب المعنية بوثبة إلى الأمام، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود، وإما أن يلفها الفناء بردائه.

الحضارة وقضية الإنسان:

وقد لجأ مالك بن نبى في تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول: إن الحضارة = إنسان + تراب + وقت

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب[3]، ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة[4].

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ١ ص ٣ – ٦.

(٢) راجع: شروط النهضة لمالك بن نبى ص ٩٦ ومابعدها – دار الفكر ١٩٧٩م.

(٣) يفضل مالك بن نبى استخدام لفظ التراب بدلا من لفظ المادة.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها.

ولمالك بن نبي تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد، ولسنا هنا نريد أن نكــرر مـا قالـه، ولكننـا نـود أن نشير إلى أن المشكلة الحضاريــة الرئيسـية فـى نظرنـا هـى مشكلة الإنسـان، فالإنسان هو العنصـر الفـاعل الإيجـابى فـى العمليـة الحضاريـة كلها، وماعداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه.

وإذا قلنا إن الإنسان هو كل شيء فنحن نعنى ما نقول تمامـاً، وهذا يقتضينا أن نحدد ما نعنيه بمفهوم الإنسان، وإن كان ذلــك ربما يعد من أظهر الأمور، ولكن ظهور الشــيء ظـهورا فائقـا قـد يكون سبب الخفاء.

فالإنســان هـو الكـائن الوحيـد فـى هـذا الكـون الـذى وصفـه الفلاسفة والمفكرون كل فى مجــال تخصصـه بأنـه كـائن عـاقل، أو كائن اجتماعى، أو حيوان متدين، أو حيوان أخلاقى، بمعنــى أن كل صفة من هذه الصفات لا توجد فـــى كـائن آخـر فـى هـذا الوجود غير الإنسان، فالإنسان وحده هو الذى ينفرد بها.

ولكن هذه الصفات ليست هى كل شيء فى الإنسان، فــهناك صفات أخرى فريدة يختص بها وهى: التقنية والتراث والتقدم.

وتتمثـل التقنيـة أساسـاً فـــى صنــع الإنســان لآلات معينــة واسـتخدامها لغـرض معـين، فإنتـــاج الآلات المعقــدة المحــددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنسانى خالص.

ولكن هذه التقنية التي يختص بها الإنسان كان من الممكن ألا تتطور إذا لم يكن الإنسان في الوقت نفسه كائناً اجتماعياً ينمو في المجتمع عن طريق التراث، وهذا التراث ليس أمراً فطرياً فيه، ولكنه يتعلمه، وذلك بفضل اللغة المعقدة التي يمتلكها، وبفضل ذلك كله يتقدم الإنسان. فهو يتعلم، ويضيف إلى ما تعلمه الجديد عن طريق قدرته على الإبداع والاختراع.

وفضلاً عن ذلك فإن تفكير الإنسان ليس دائماً مرتبطاً بغرض مادي عملي، فهناك مجالات لا تخضع لهذا الغرض تشغل اهتمام الإنسان، فتطلعه الدائم لاكتساب المعارف واكتشاف المجهول لا يقف عند حد[1].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن مشكلة الإنسان تتفرع إلى جوانب عديدة تتكامل فيما بينها ولا تتناقض، ويمكن إجمالها في العناصر التالية:

العقل بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى وبما له من قدرة على الإبداع، والتدين، والتعلم، والأخلاق، والنزعة إلى الاجتماع، وهذه النزعة تشمل ما يترتب عليها من النظام الذي يحفظ المجتمع ويتمثل في القوانين، واللغة والتراث والتقنية والتقدم.

---

(١) انظر: مدخل إلى الفكر الفلسفي لبوخينسكي ومن ترجمتنا ص ٩١ وما بعدها- – دار الفكر العربي ١٩٩٦م.

والإبداع الحضارى فى هذا كله يتمثل بصفة عامة فى الفلسفة والعلم بجميع فروعه والتقنية والفن انطلاقاً من قاعدة أساسية هى الدين. والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركت لنا من آثار لاتزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم.

وهكذا نجد أن مركز الدائرة الحضارية هو الإنسان، وأهم خصائصه العقل، والعقل يعنى الكرامة الإنسانية واستقلال الشخصية، ويعنى المسئولية، ويعنى الحرية.

وإذا كانت الحرية ضرورية للتحضر - فإنها تصبح عديمة المعنى إذا لم تتوفر للإنسان وسائل العيش من القوت والكساء والمأوى، وإذا لم يتوفر له الأمن على نفسه وماله وعرضه وعقيدته. وفى هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته فى تحقيق وجود إنسانى يليق بكرامة الإنسان.

الحضارة والميراث الحضارى

ومما لاشك فيه أن الحضارة تعد امتيازاً للإنسان - فالإنسان وحده صانع الحضارة - ولكن الحضارة ليست ببساطة شيئا موروثا أو مجبولا فى فطرة الإنسان، وإنما هى شىء لابد أن

يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديداً، والتربية هى الوسيلة التى تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل[1].

ولكن الأمر لا يجوز له أن يقف عند حد الامتلاك المتجدد للحضارة. فنحن مثلا وارثو حضارة فرعونية قديمة ووارثو حضارة عربية إسلامية ولكن ما قيمة ذلك إذا وقفنا بعقارب الزمن ولم نبذل أى جهد يضيف جديداً إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا.

ورحم الله جمال الدين الأفغاني: فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب قد عبروا المحيط قديماً واكتشفوا القارة الأمريكية قبل الأوروبيين، فرد الأفغانى قائلاً: «إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[2]

الحضارة والالتزام الأخلاقى

ولكن مجرد الإضافة المادية إلى الموروث الحضارى لا تكفى. فالحضارة قبل كل ذلك وبعده هى التزام أخلاقى. وهذا يعنى

---

(١) انظر: قصة الحضارة ج ١ ص ٨.

(٢) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ – القاهرة ١٩٧١م.

أنها ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة. فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء دون أن يكون ملتزما أخلاقيا بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضارى. ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكا حضارياً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

وإذا قلنا إن الحضارة في جوهرها تعد التزاماً أخلاقياً فإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية. فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الانسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة وإنما بمعنى معين تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه. فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب. ونحن جميعاً - سكان هذا الكوكب - مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها. وهذا الفهم الجديد الذى يضع عنصر المسئولية فى مقدمة العناصر الأساسية التى تشكل ظاهرة الحضارة هو الذى أدى - على سبيل المثال - إلى انعقاد مؤتمر

الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو ما أطلق عليه اسم «قمة الأرض» في النصف الأول من شهر يونية عام ١٩٩٢م في ريو دى جانيرو لمناقشة المشاكل البيئية العديدة التي تهدد الحياة والأحياء على الأرض في محاولة لانقاذ البشرية من الأخطار والكوارث التي لا يعلم مداها إلا الله، تلك المشاكل التي نتجت عن التقدم التقني المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء. فهذا المؤتمر المشار إليه يعد تعبيراً عن المسئولية الحضارية المشتركة التي أصبح سكان الأرض جميعاً مطالبون بتحمل أعبائها.

وهذه المسئولية تعنى أن الحضارة الحقيقية تضع الإنسان - الذى هو نفسه صانع الحضارة - في قمة اهتماماتها. وإذا قلنا الإنسان فإن ذلك يعنى الإنسان بكل ما يعبر عنه ذلك من معنى:

الإنسان في شتى جوانب اهتماماته المادية والعقلية والروحية. ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة في إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لابد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة في العالم ترجع في رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردى

والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرتـه علـى تشـكيل بيئته تشكيلاً مادياً.

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقـى فـى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كـل فرد. فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل.

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هــو الإنسـان قبـل أى شىء آخر. وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريتـه لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة – أى حضــارة – تنتـهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان.

وهناك ارتباط لا ينفصل بين الأخلاق والإنسـانية: **فـالأخلاق** تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية، **والإنسانية معناهـا** توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم، وحيث تنتـــهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

وإذا كان توماس هوبـز قـد ذهـب فـى تصـوره إلى حـد رؤيـة الإنسـان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكـل فـى حـرب ضـد الكل فإن التصور الذى يتـلاءم مـع الحضـارة الحقيقيـة أو الـذى يعبر عن لـب هـذه الحضـارة والـذى ينبغـى أن يصـل إلى وعـى الأفراد والجماعات هو «مسئولية الكل عن الكل».

والإنسان لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا إذا كان حراً، ومقدرته على أن يكون رائداً للتقدم بمعنى أن يفهم ماهية الحضارة وأن يعمل بها تتوقف على كونه مفكراً وعلى كونه حراً، إذ ينبغى أن يكون مفكراً ليكون قادراً على فهم مثله وتصويرها وينبغى أن يكون حراً ليكون فى وضع يتهيأ له منه أن يدفع بمثله فى الحياة العامة[1].

ولا يمكن - فى حقيقة الأمر - فصل حريتى كفرد عن حرية الآخرين، لأن الحرية لا يدركها المرء إدراكاً حقيقياً إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين. فالعلاقة بين الأشخاص هى وحدها التى تجعل الحرية أمراً ممكناً.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الإنسان لا يمكن أن يعيش ويتمتع بنعمة الحياة ذاتها إلا فى ظل علاقة إنسانية. وقد أثبتت ذلك بعض البحوث العلمية التى أجراها فريق من العلماء الأمريكيين. فقد تضمنت التجربة التى قام بها هؤلاء العلماء عزل خمسة من الأطفال حديثى الولادة فى حجرة واسعة معقمة تعقيماً ممتازاً. ومجهزة بأحدث الوسائل الصحية، وخصص لكل طفل فراش صغير أنيق فى غاية النظافة، فإذا حان موعد الطعام

---

(١) انظر: فلسفة الحضارة ص ٢٠ وما بعدها.

دخلت الممرضة فألقمت كل طفــل زجاجــة لـبن تتوفـر فيـه كـل شروط الغذاء الصحى.

ولكن الممرضة - حسب التعليمات المشددة من جانب الأطبـاء العلماء أصحاب التجربة - لم يسمح لها بلمس الطفـل أو حملـه بين ذراعيها وهدهدته أو تدليله أو مضاحكتـه أو مداعبتـه بكلمـة أو قبلة. فكان تعاملها مع هؤلاء الأطفال تعاملاً آليا كما لو كانت تتعامل مع آلة من الآلات، لا مع شخص بشرى.

وكانت نتيجة هذه التجربـة اللاإنسـانية هـى مـوت الأطفال الخمسة رغم العناية الصحية الفائقة. وكان سبب مـوت الأطفال - كما شخصه العلماء - هو الحرمان من هذه العلاقة الإنسانية، الحرمان من الحنان الأمـوى أو مـن التدليـل والهدهـدة والمداعبـة والقبلات. فهذا كله يمثل بالنسبة للطفل إكسير الحياة. والعلاقة الإنسانية هى التى تضمن له كل ذلك[1].

والمسئولية التامة تستند دائما بالضرورة إلى العلاقـة الإنسـانية الأساسـية المطلقـة التـى تتمثـل فـى المحبـة والأخـوة والعدالــة والتراحم والتسامح بين بنى الإنسان.

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسـرى بين الناس وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير.

---

(١) راجع صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٤/٧/١٩٨٠م ص ١٤.

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطئ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لايكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة. وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى ويختفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى.

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون من جانب آخر بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة حوار معها، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية.

الأبعاد الأساسية للحضارة:

وفى نهاية حديثنا عن مفهوم الحضارة يمكننا أن نوجز فى عبارات قصيرة أهم الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى وذلك على النحو التالى:

١ - **البعد الإنسانى:** ونعنى بذلك فهما مزدوجا على المستوى الفردى وعلى المستوى العام: على المستوى الفردى من حيث ضرورة المحافظة على كرامة الإنسان وحريته كفرد ومراعاة اهتماماته المادية والعقلية والروحية، وما يمثله ذلك من احترام عقله وفكره وعقيدته حتى يكون قادرا على الإبداع فى مجالات العلم والفلسفة والدين والفن. أما على المستوى العام فنعنى بذلك مراعاة الاعتبار الإنسانى بالنظر إلى الإنسان أينما

كان وأنى كان من حيث هو إنسان بالمعنى الذى يحقق قيمة الإنسانية فى العلاقات بين أبناء البشر من شتى الحضارات والأديان والأجناس.

٢ - **البعد الأخلاقى:** بمعنى الالتزام بمنظومة القيم الأخلاقية التى تعنى سيادة العقل على نوازع الإنسان وما يرتبط بذلك من التزام أخلاقى مسئول بأوسع معانى الالتزام والمسئولية.

٣ - **البعد التقدمى:** بمعنى دفع عجلة التقدم فى مجالات العلم والفكر والسلوك وفى أسلوب التعامل بين الناس. فالحضارة كما سبق أن أشرنا ليست مجرد ميراث يرثه الإنسان وليست مجبولة فى فطرته، ومن هنا ينبغى أن يكتسبها المرء من جديد ويسهم بنصيبه فى الإضافة إليها والإبداع الذى يغذيها ويدفع بها إلى الأمام.

٤ - **البعد الدينى:** فالدين عنصر فعال فى كل حضارة لا يجوز تجاهله. وتاريخ الحضارة فى السابق وحتى الآن يبرهن على ذلك.

٥ - **البعد الزمنى:** بمعنى مراعاة مفهوم الزمن من حيث هو حلقات متصلة غير منقطعة، وهذا يعنى التواصل الحضارى والحفاظ على كل ما هو جوهرى فى ذاتية الأمة، وفى الوقت

نفسه عدم تجاهل التطورات المستجدة فى الحاضر مع استشراف المستقبل.

٦ - **البعد التوازنى:** بمعنى ضرورة التوازن بين متطلبات الإنسان العقلية والمادية والوجدانية. فالحضارة أحادية الجانب أو التى يختل فيها التوازن تحكم على نفسها بالفناء.

٧ - **البعد العالمى:** بمعنى مراعاة المتغيرات الدولية وإدراك واقع التعددية الحضارية والتمايز الحضارى فى العالم الذى لا يعنى بالضرورة التناقض أو التضاد. ومن جانب آخر الانفتاح على كل الحضارات والحوار معها فى سبيل خير الإنسانية وترسيخ أسس السلام والعدل والاستقرار فى العالم.

وغنى عن البيان أن كل هذه الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى متوفرة جميعها فى تعاليم الإسلام. فالإسلام قد كرم الإنسان وفتح أمامه المجال للانطلاق بلا حدود فى آفاق العلم والمعرفة من أجل إعمار الأرض ودفع عجلة التقدم فى المجتمع البشرى، وأمرنا أن نسير فى الأرض وندرس ما كان من أخبار السابقين ونستفيد من كل الخبرات البشرية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

وتعاليم الإسلام تحرص على تأكيد مبدأ الوسطية وإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان المادية والعقلية والوجدانية،

وفضلا عن ذلك فإن الإسلام يعد دين الإنسانية ﴿ **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[1].

وكل هذه الأبعاد محوطة فى الإسلام بسياج من القيم الأخلاقية الرفيعة، ومن هنا لخص محمد صلى الله عليه وسلم رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2].

ومن كل ذلك يتضح أن الحضارة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تعد فريضة إسلامية وواجباً دينياً وعنصراً أساسياً من عناصر دين الإسلام. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نبينه فى القسم الثانى من هذا الموضوع.

ثانيا: الإسلام والحضارة:

قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية يجدر بنا أولا أن نلقى نظرة على الوضع الراهن فى العالم الإسلامى ومحاولات الربط بين الإسلام كدين وقضية التخلف التى تسود العالم الإسلامى منذ فترة طويلة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

١ - تمهيد:

يعانى العالم الإسلامى فى العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب، ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضارية فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية، العلمية والدينية، الفكرية والحضارية يخيم على العالم الإسلامى.

وقد حدا ذلك ببعض خصوم الإسلام فى الغرب إلى إلصاق هذا التخلف بالإسلام نفسه، إذ هو فى زعمهم دين يشد أتباعه إلى التخلف حيث يشكل عائقاً أمام التقدم العلمى والتطور الحضارى، وذلك بما يشتمل عليه من تعاليم جامدة، وتشريعات صارمة، تحد من الانطلاق فى مجالات التمدن والحضارة والرقى والتقدم.

ويستدل خصوم الإسلام على مقولتهم هذه بالواقع المشاهد فى العالم الإسلامى، فهذا العالم الإسلامى كله يقع اليوم فى صف دول العالم الثالث المتخلف، فإذا كان الإسلام دين حضارة وتقدم لما وجدنا هذا الوضع المتخلف فى عالم الإسلام، وهكذا يرجع هذا التخلف إذن إلى الإسلام ذاته.

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامى، وأن

يأخذوا بالنموذج الغربى الذى دفع بالغرب إلى قمة التقدم والحضارة.

ويبدى – فى هذا الصدد – أحد المستشرقين المبشرين نصيحة للمسلمين لدفعهم إلى النهوض من وهدتهم بقوله: «إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه، أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة»[1].

فهذا الدين الذى ظهر فى الصحراء لم يعد يستطيع مسايرة الحياة المعاصرة، ومن هنا فلابد من طرح ما فيه من جمود حتى يمكن للمسلمين اللحاق بركب العصر.

وقد سار خلف هذا الزعم الباطل نفر من أبناء الأمة الإسلامية التابعين للغرب فى فكرهم تبعية ذليلة من منطلق مركب النقص والشعور بالدونية إزاء الغرب المتفوق، وكأن الإسلام لم يقدم للإنسانية أى إسهام فى مجالات الفكر والعلم والحضارة.

وليس من غرضنا هنا أن نشغل أنفسنا بالرد على هذه المزاعم، فالاشتغال بذلك يعد لوناً من ألوان ردود الأفعال التى لم يعد يجدر بنا أن نقف عندها طويلاً، بل ينبغى علينا أن نقتحم

---

(١) راجع: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٦١٢ – دار الفكر – بيروت ١٩٧٣م.

المشكلات المحيطة بنا بأسلوب عقلانى بعيد عن الانفعالات العاطفية، بصرف النظر عما يقال هنا أو هناك، من أجل البحث عن حلول سليمة لمشكلاتنا المصيرية، وعلى رأسها قضية التخلف الحضارى الشامل الذى لا يخفى على أحد، وذلك على الرغم من وجود قشرة حضارية يلمحها المرء هنا أو هناك.

إننا كمسلمين لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمي النفس الإنسانية، ولكن لا نستطيع أن ننكر فى الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى بمائة وثمانين درجة، ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى. بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديها سلم الأولويات، فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة، وضاعت أصوات المتعقلين من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى بعض الأحيان بشدة حدتها، وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم.

فما هى الأسباب الكامنة وراء هذه الأزمة الطاحنة المتمثلة فى هذا التخلف الحضارى الشامل فى العالم الإسلامى؟ وما مدى

مسئولية الإسلام والمسلمين عنها؟ وما الذى يمكن أن يسهم به الإسلام فى صنع الحضارة والتقدم الإنسانى؟ وهل يمكن أن تدخل الحضارة فى دائرة الواجبات الإسلامية الضرورية التى يمكن أن توصف بأنها فريضة إسلامية؟.

٢ - الحضارة فريضة إسلامية:

لقد عرضنا فى القسم الأول من هذا الفصل بإيجاز شديد للملامح الأساسية التى تمثل الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات، أو التى ينبغى أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة، وعلينا الآن أن نتجه نحو الإسلام لنرى ما إذا كان يشتمل على هذه الشروط الضرورية أم لا؟

ولعل هناك من يعترض علينا فى هذا الصدد على اعتبار أن هذا البحث ربما يفهم منه افتراض أن الإسلام لم يصنع حتى الآن حضارة، وهذا أمر مخالف للواقع. فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ، وقد امتدت من أقصى الصين شرقاً إلى أقصى الأندلس غرباً، وهذا يعنى أن الإسلام فيه كل المقومات الأساسية لبناء الحضارة.

وهذا اعتراض له وجاهته، ولكننا لا نبحث الآن تاريخاً مضى وانقضى، ولكننا نبحث فى مشكلة واقعية نعيشها، ولابد من مواجهة الأمر الواقع لنرى ما إذا كانت المشكلات الحضارية

بمعطياتها المعاصرة تجد لها فى الإسلام حلولا أم لا وذلك من منطلق أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

ومن هنا فإن من الأهمية البالغة تبيان هذا الأمر بمنتهى الوضوح حتى لا يتطرق هناك لبس أو يتسرب شك إلى عقل المسلم فى مدى صلاحية إسلامه للبناء الحضارى الإنسانى فى أى وقت وفى أى مكان.

ونحن نزعم فى هذا الصدد أن الحضارة بالمفهوم الذى ارتضيناه تعد فريضة إسلامية لا تقل أهمية عن أية فريضة أخرى فى الإسلام، وأن الخروج من هذه الوهدة التى ترددت فيها الأمة الإسلامية يعد واجباً دينياً لا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى شأنه بأى حال من الأحوال.

ولعلنا بهذا المصطلح نثير مشكلة فقهية حول مصطلح الفريضة فى الإسلام. ولكننا لا نريد أن نضيع وقتاً فى هذه المناقشات اللفظية فسيتضح لنا من خلال ما سنعرضه هنا أن استخدامنا لهذا المصطلح استخدام سليم، فإن استعادة العزة التى كتبها الله للمؤمنين والتمكين لهم فى الأرض من الأمور التى لا تقل فى أهميتها عن فريضة الصلاة والصيام، بل إن هذه العزة وهذا التمكين يمثلان الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها، وصدق الله

العظيم القائل ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[1].

ويكفى أن نشير هنا فى البداية إلى القاعدة الأصولية المعروفة التى تقول: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(أ) الإنسان محور اهتمام القرآن:

وإذا كان الإنسان بصفة عامة هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها فإن هذا يقتضينا أن نبحث موقف الإسلام من الإنسان لنتعرف على مكان الإنسان ومكانته فى تعاليم الإسلام. ومن خلال ذلك نستطيع أن نتعرف على موقف الإسلام من الحضارة.

إننا إذا تأملنا فى القرآن الكريم وهو فى حقيقته كتاب جاء لنتدبر معانيه ونتأمل فيها وصولا إلى معرفة الحق الذى لا مراء فيه، وإلا حق علينا قول القرآن نفسه: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[2].

نقول إذا تأملنا فى القرآن الكريم فسيتضح لنا أن الإنسان هو محور اهتمام القرآن، فالقرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.

وقد تكررت كلمة الإنسان في القرآن ثلاثاً وستين مرة، وجاء الحديث بلفظ بني آدم ست مرات، وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحي القرآني على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة، ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين في الآيات الخمس الأولى من الوحي. مع التركيز أيضاً على العلم وأدواته **﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾**[1].

ولا غرابة في ذلك، فالإنسان قد جعله الله خليفة في الأرض، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض، وصنع الحضارة فيها.

إن مسئولية الإنسان الكبرى التي ارتضى أن يتحمل أعباءها بعد أن أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال - هذه المسئولية تعد تكريماً للإنسان، لأن تحمل المسئولية يعني الحرية، ويعني استقلال الشخصية. وتتركز هذه المسئولية

---

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥ (راجع: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧م).

الكبرى – التى تتمثل فى الخلافة فى الأرض لعمارتها – على مسئولية الإنسان عن نفسه. ومن هنا فعليه نحو نفسه كفرد واجبات لا يجوز أن يفرط فيها، وهذه الواجبات تتمثل فى استخدام كل ما وهبه الله له من قوى وطاقات فيما خلقت من أجله. فالعقل وظيفته التفكير والفهم والإدراك، والحواس وظيفتها إدراكية فى مجالاتها، ووقت الإنسان ثمين لابد أن يقدر قيمته، ويشغله فيما يفيد، وصحته لا يجوز له أن يفسدها أو يهمل فيها، وإلا لن يكون قادراً على تحمل مسئولياته نحو نفسه ونحو الآخرين، وعلمه لابد أن يحسن استخدامه ويؤدى حقه، فطلب العلم إذا كان فريضة على كل مسلم ومسلمة كما قرر رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – فإنه من ناحية أخرى مسئولية سيحاسب الإنسان عما فعل بها يوم القيامة، كما سيسأل أيضاً عن ماله كسباً وإنفاقاً، وفى ذلك كله يقول النبى عليه الصلاة والسلام:

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[1].

---

(١) رواه الترمذى.

وفضلا عن ذلك فالإنسان مسئول عن استخدامه أو عدم استخدامه لوسائل الإدراك العقلية والحسية، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1].

ومن هنا سيقول الكافرون يوم القيامة: ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم** ﴾[2].

وهذا يبين لنا أن عدم استخدام وسائل الإدراك من عقل، وحواس فيما خلقت من أجله يعد ذنباً من الذنوب، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية بل إلى أسفل منها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾[3].

وليس هناك دين من الأديان رفع من شأن العقل، وأعلى من قدره مثلما صنع القرآن. وقد حرص الإسلام على إزالة كل

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

العوائق التى تعترض سبيل العقل البشرى حتى يستطيع ممارسة دوره كاملاً فى هذا الوجود، ومن هنا رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، ولم يرتض رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - أن يكون المسلمون إمعات يسيرون وراء كل ناعق، بل عليهم أن يحكموا عقولهم ويميزوا بين ما يضرهم وما ينفعهم، فلا حُجِّية لأحد فى الإسلام بعد كتاب الله وسنة رسوله، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب الشريعة. وكذلك حرر الإسلام العقل من الخرافات والأوهام والشعوذات، وجعل المسئولية فردية فى أساسها فليست هناك خطيئة موروثة، وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس من حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال[1].

وغرس الإسلام فى نفس المؤمن العزة وقرنها بعزة الله وعزة رسوله **﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾**[2]. وقرر الإسلام

(١) راجع الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٠ - دار المعرفة - بيروت.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأن المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم، وبذلك صان الإسلام كرامة الإنسان.

وأكد القرآن الكريم الكرامة الإنسانية فى قوله تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[1].

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة فى الإسلام تعنيان أيضاً رفع الوصاية عن العقل البشرى. وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق.

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبادئ التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول فى مجال استنباط الأحكام الشرعية، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمراً حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية، والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون والصنائع.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠ . يلحظ القارئ الكريم أن بعض ما ورد فى الصفحات السابقة من إشارات إلى العقل الإنسانى قد سبقت الإشارة إليه فى الفصل السابق. ويرجع السبب فى هذا التكرار إلى أن فصول هذا الكتاب قد كتبت فى مناسبات مختلفة وفى أوقات متباعدة. ولم نشأ أن نحذف منها شيئاً.

(ب) مجالات النشاط الإنساني:

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية، ووفر له كل الشروط الضرورية التي تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة في خلافته لله في الأرض، والنهوض بمسئوليته في عمارة الأرض، وجعل الله الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان، فكل ما عدا الإنسان في هذا الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان ومجال لنشاط الإنسان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[1]، كما يقول أيضا: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[2].

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية في هذا الكون بقوله **﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**[3]. وهذا يعني أن الله قد فوض إلى الإنسان عمارة الأرض، والعمارة نقيض الخراب، وتعني تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة هود: الآية ٦١.

صالحة للانتفاع بها وبخيراتها. والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة. فالإنسان مطلوب منه - طبقا للمشيئة الإلهية - أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء.

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون[1].

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذى هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق، بل هى أحد جوانب العمارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذى به تكتمل

---

(١) راجع: فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ١ ص ٥٦ - دار الشروق.

الحضارة – أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى – فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض ماديا ومعنويا. وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض.

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، وبذلك يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيداً فى هذا الكون، وهذا هو معنى خلافته لله فى الأرض.

(جـ) القيم الحضارية المنسية:

مما تقدم يتضح لنا أن الإسلام بما يشتمل عليه من تعاليم قد هيأ السبيل أمام المسلمين لعمارة الأرض، أو بناء الحضارة على أفضل الوجوه، غير أننا فى صلتنا بالإسلام قد ضيقنا رحمة الله

الواسعة، وحصرنا الإسلام فى مجموعة الشعائر المعروفة، فاختفت من حياتنا - أو كادت - مجموعة القيم الحضارية المشرقة، وأصبحت فى واقعنا الإسلامى قيما منسية، لا أثر لها فى حياتنا ولا تأثير.

ونود فى هذا الصدد أن نشير مجرد إشارات عابرة إلى بعض النماذج من هذه القيم المنسية على سبيل التذكرة بها ومن هذه القيم:

١ - قيمة التفكير:

وهى من القيم التي حث عليها القرآن الكريم، وأشار إليها فى صيغ عديدة دليلا على أهميتها، وما تؤدى إليه من إبداع فى شتى أنواع العلوم والفنون والصنائع. ولكننا بنظم التعليم لدينا قد نجحنا فى تعليم أبنائنا الخوف من التفكير، وقمنا بصبهم جميعاً فى قالب واحد يربطهم بحرفية المكتوب، وأغلقنا أمامهم فرص الإبداع والانطلاق، وأصبح الفكر لدينا فى اللسان الشعبى أمراً مرادفاً للغم والهم حيث لا تجد الأم التى تحنو على أبنائها دعوة أفضل من أن تدعو الله أن يبعد عنهم الفكر.

ونحن مطالبون بأن نفكر، وأن يقض التفكير مضاجعنا ويقلقنا فى سبيل البحث عن مخرج لنا من أزمتنا الطاحنة.

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى غرس قيمة التفكير في نفوس أبنائنا وبناتنا. فإذا تعلم شبابنا التفكير وأحسنوا استخدامه فلن يكون هناك مجال للتطرف في الفكر أو في فهم الدين، ولن يستطيع أحد عندئذ خداعهم بشعارات زائفة لا يقصد من ورائها إلا وضع العقبات أمام التفكير وإلغاء العقل بالكلية حتى يسير الشباب معطل الفكر مشلول العقل نحو ما يريده هؤلاء الذين لا يريدون لأمتنا خيراً.

وقد اهتم القرآن الكريم بقيمة التفكير اهتماماً كبيراً، وجعل الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالاً واسعاً للتفكير الإنساني. ويتضح لنا ذلك بجلاء عندما نقرأ الآية الكريمة التي سبقت الاشارة إليها ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1].

ومما لاشك فيه أن تمكين العقل من أداء دوره كاملاً كفيل بوضع حد لكل شكل من أشكال التطرف وكفيل أيضاً بتجفيف منابع التطرف. وفي المقابل نجد أن الغاء دور العقل من شأنه أن يفسح المجال واسعاً أمام هجمة التطرف الشرسة وما يتبع هذا التطرف من تعصب وعنف وإرهاب.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣. انظر أيضاً التعليق على هذه الآية في الفصل السابق.

إن دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل. وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجباً مقرراً وفريضة إسلامية. ومن هنا قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها، وذلك أخذاً من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن.

٢ - قيمة العمل:

يرتبط العمل فى القرآن الكريم بالإيمان، ويرتبط بقيمة أخرى هى قيمة إتقان العمل واستمراريته، حتى ولو قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل كما يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -[1]، ويرتبط بقيمة العمل قيمة الوقت، وأسلافنا كانوا يقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن هذه القيمة قد تحولت على أيدينا إلى شىء أرخص من التراب، وتفيد بعض التقارير أن متوسط عمل العامل فى بلادنا لا يتجاوز نصف ساعة فى اليوم، وقد نسينا أن الله سبحانه قد أقسم بالعصر، وبالفجر، وبالضحى، وبالليل، وبالنهار، وهى تمثل أجزاء من

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ طبعة اسطنبول بعنوان: الكتب الستة مجلد ٢٢.

الوقت دليلا على أهمية هذه القيمة، وليلفت أنظارنا إليها، ويوجهنا لاستغلال أوقاتنا الاستغلال الأمثل، فنحن مسئولون يوم القيامة عما صنعنا بأوقاتنا.

٣ - قيمة النظافة:

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى الحديث الشريف القائل: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[١]، فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم إماطة الأذى عن الطريق جزءا لا يتجزأ من الإيمان، ولو حقق المسلمون هذا الجزء من الحديث النبوى لكانت شوارع المسلمين فى قراهم ومدنهم أنظف الأماكن فى الدنيا كلها.

٤ - قيمة مراعاة شعور الغير:

وهنا نشير أيضاً إلى هذا التعليم النبوى الرائع فى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه**»[٢].

---

(١) رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى (فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥) بيروت - دار المعرفة.

(٢) رواه البخارى ومسلم (فيض القدير ج ١ ص ٤٣٥).

٥ – قيمة النظام:

لقد أصبحت حياتنا خليطاً عجيباً من الفوضى على المستوى الفكرى والدينى والعلمى والحياتى فى حين أن تعاليم الإسلام فى الصلاة وفى الجهاد – على سبيل المثال – قد أعطت لنا مثالاً رائعاً فى النظام.

٦ – قيمة الجمال:

الإسلام دين الجمال يكره القبح وينفر المسلمين منه، وتعاليم الإسلام كلها تحث على الجمال فى كل شىء، والحديث الشريف الصحيح يقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1]، والمسلم مأمور بأن يأخذ زينته عند كل مسجد، وكما يكون الجمال مادياً كما نراه فى الأجسام والأشياء من حولنا يكون أيضاً جمالاً معنوياً يتمثل فى الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة.

والكون بما فيه من تناسق وإحكام أعظم مثال على الجمال الإلهى فى هذا الوجود، وأوصاف الجنة فى القرآن الكريم تعد لوحات فنية رائعة الجمال.

إننا نفترى على الإسلام إذ نجعل منه ديناً ينفر من الجمال ويدعو إلى الكآبة والتجهم.

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحة ٢/٨٩ بيروت ١٩٧٢م – دار إحياء التراث العربى.

إننا نظلم الإسلام حين نجعل منه دينا عدوا للعواطف والوجدانيات، وعدوا للتعبير الجمالى عن هذه العواطف بقصيدة جميلة، أو أغنية ذات كلمات عفيفة، أو لحن موسيقى يرقق المشاعر، أو رسم جميل يبرز آيات الله فى الكون.

لماذا ننسى أن أبا بكر - رضى الله عنه - قد دخل على عائشة فى يوم عيد فوجد عندها جاريتين تغنيان فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان فى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم فقال النبى الكريم: «**يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا**»[1].

ولماذا ننسى أيضا ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء، فقال يا عائشة: «**ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم**»[2].

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٦١٢ طبعة عيسى الحلبى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٣٩١ طبعة بيروت.

تلك كانت بعض الإشارات العابرة من تعاليم الإسلام فى مجال القيم الحضارية، وما أكثرها، وهذا مجال واسع يطول شرحه[1].

(د) نحو حضارة إسلامية معاصرة:

والسؤال الآن هو: إذا كان هذا موقف الإسلام من الحضارة فما بال المسلمين قد تخلوا عن ركب الحضارة، وارتضوا لأنفسهم منذ قرون أن يكونوا فى مؤخرة الركب لا يشاركون فى صنع الحضارة، وإن كانوا يستخدمون منتجاتها؟ إن الحضارة المعاصرة إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها، وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل، فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساساً، وهذا يعنى أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر، ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة، ولكنه لا يسلك سلوكاً حضارياً، ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر، رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة، ومن هنا فعدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا

---

(١) وليقرأ من يريد كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام الكبير ابن القيم، وكتاب طوق الحمامة للإمام ابن حزم. فقد احتفل كل منهما بقيمة الجمال احتفالاً لاحد له ووصفا ما لها من آثار عميقة فى النفس البشرية.

عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض وتركوها لغيرهم وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

فماذا يريد المسلمون؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون بذلك التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى ما يريده الإسلام من أبنائه، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ولغيرنا لابد أن يكون جامعاً للأمرين، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى. إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام.

فلا يجوز لنا إذن أن نتخلى عن فريضة العلم، وما يرتبط به من تقنية بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها المادية، وتطوراتها العلمية والتقنية، في الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهذه التعاليم على مدى القرون الماضية، وهذا يتطلب تحولاً جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصحيحا للأوضاع الغريبة، والتقاليد البالية، والقصور العقلى، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقلية متخلفة، فالعيب إذن فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام. فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليمه، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحوه بصدق جذبهم إلى أعلى، وإذا أرادوا أن يخضعوه إلى فهمهم السقيم تخلى عنهم، وتركهم يسقطون فى وهدة التخلف.

إن الأمر الذى يدعو للأسى والحسرة أننا كلما أدركنا ما نعانيه من قصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحديثة المؤسسة

على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان دينى لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسه، لأننا لو كنا حقاً قد تشربنا الدين الذى نؤمن به لوجب علينا بحكم هذا الدين نفسه أن نسبق الدنيا فى إقامة الحضارة القائمة على كشوف العلم وما ينبنى عليها، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى فهمنا كلمة «علم»، فإذا كان العلم الذى بنيت عليه حضارة عصرنا هو - أساساً - العلم بقوانين الطبيعة، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله، فخلق الله هو هذا الكون بشتى كائناته وظواهره، وتدبر هذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نظرة المتفرج، بل يعنى تعمقها والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مسيرتها، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

فإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات. وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا بحكم الدين أن نتناوله بالنظر[1]، ولكننا للأسف

---

(١) انظر: د. زكى نجيب محمود صحيفة الأهرام ٥/٦/٩٠.

لا نفعل شيئاً من ذلك، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين، فأين ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[1]. إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها فى هذا الصدد ممثلا ذلك فى قائمة الأفعال التى تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم وغيرها من أفعال مشابهة.

لقد ركزت الصحوة الإسلامية على أمور العبادات وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات، وهذا من قبيل الهزل في وقت الجد.

إن المسألة الملحة اليوم هى البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون طالما لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام، وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة، دين التوازن بين الجسم والروح، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى، وبصفة عامة دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية. والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين.

والتعاليم التى تستطيع أن تصنع ذلك كله هى تعاليم الإسلام.

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته، وهذا ما فهمه المسلمون فى السابق، وبذلك استطاعوا فى فترة زمنية قصيرة أن يقيموا أعظم حضارة فى التاريخ، ومن هنا يمكننا مرة أخرى أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم.

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني:

الفصل الثالث: الحضارة فريضة إسلامية

العدد القادم

العرب وأسرار الحرب الخفية

د . محمد زكى عويس

رقم الإيداع	١٩٩٨/٩٠٦٨
الترقيم الدولى	977-02-5587-4 ISBN

١/٩٨/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



الدين هو المكون الرئيسى لكل الحضارات .. فإذا تأملنا الحضارة المصرية القديمة نجد أن الدين كان الباعث الأساسى لها وهذا يتمثل فى المعابد والمقابر التى تعبر عن الطابع الدينى لهذه الحضارة وكذلك الشأن بالنسبة للحضارات الإنسانية الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية وهذا يدل علي مدى عمق العقيدة الدينية وتغلغلها فى النفس الإنسانية مهما بلغ التقدم المادى والحضارى.

والقضايا المطروحة فى هذا الكتاب تفتح الطريق أمام القارئ نحو مزيد من البحث والاطلاع.

٤٠٦٩٠٧/٠١

